رواية

الحسناء المتنكرة

تاليف

اميل سالغاري الكاتب الايطالي المشهور

تعريب

خليل بيدس

منشئ مجلة النفائس العصرية

طبعت في القدس بمطبعة دار الايتام السورية سنة ١٩١١

الفصل الاول

﴿ في اثناء اللعب ﴾

— لقد غلبتني ايها السنيور بربنيانو في هذا المسآء كما غلبتني امس وخسرتني في هذين اليومين مئة تسيخين [١] فلم يبقَ لديَّ شيء مما يطمع فيه الاتراك . فاذا سقطت في ايديهم «فاماغوسطا» فلا يسلخون مني الاَّ الجلد

— ان فاماغوسطا لا تسقط ايها السنيور لاشينسكي فلا تخشَ سوءًا

— وهل انت متأكد ذلك ؟

— نعم ايها القبطان [٢] فمنذ جاءتنا النجدة الجديدة من الصقالبة لم يعد لديَّ خوف على فاماغوسطا لان جمهورية فينيسيا (البندقية) البهية تعرف كيف تختار الجنود .

— ولكن من غير الصقالبة

— ارجو منك ايها القبطان ان لا تهين جنود دالماتيا

— لم يخطر في بالي ان اهينهم او اهين غيرهم مع انك لا تصف جنودنا البولونية بمثل هذا الوصف

وكان الحاضرون لدى سماعهم كلام لاشينسكي قد تبادلوا النظرات وتحفزوا للوثوب عليه وقد وضع كلٌّ منهم يده على قبضة حسامه . فلما رأى لاشينسكي هذه الحركة قهقه وقال لهم — ما بالكم اشتعلتم كالهشيم وانا انما قلت ذلك على سبيل المجون . فاعلموا ايها الرفاق اني اقدّر بسالتكم

---

١) نحو ثمانية فرنكات ٢) اليوز باشي

في ميدان الوغى وأفتخر بكم افتخاري بنفسي وان هذه الاشهر الاربعة التي قضيناها معاً نقاتل جنبا الى جنب هوءلاء الاتراك لم تزدني الاَّ إعجاباً بكم وثناءً على شجاعتكم . فلنبقَ كما كنا يداً واحدةً على العدو ولا تحملوا كلامي الاَّ محمل المزاح والمداعبة . . . ثم التفت الى جليسه وقال — هيا بنا ايها السنيور بربنيانو نستأنف اللعب فلا بدَّ لي هذه المرة من الانتصار عليك

وفي هذه اللحظة سُمع صوت اطلاق مدفع دوى له المكان . فضرب لاشينسكي يده على ركبتهِ وصاح قائلاً — ان الاعداء لا يتركوننا نأخذ نصيبنا من الراحة حتى في الليل . . ولكن لا بأس فلنواصل لعبنا ودعهم يصبُّون علينا مدافعهم صباًّ

وبعد ان مضى عليهما نحو ربع ساعة رأى لاشينسكي ان البخت لا يزال يعانده وان رفيقه لا يزال يغلبه المرة تلو الاخرى فاستاء جداً وقال — يلوح لي انك يا سنيور بربنيانو متحالف مع الشيطان !

فضحك بربنيانو وقال — خلّ عنك المزاح لاني مسيحي تقي لا يخطر في بالي شيءٌ مما تقول

— اذاً فانت تعرف طريقة خاصة تمكنك من الغلبة على الدوام ولعلك تعلمت هذه الطريقة او هذه الحيلة من القبطان تمبستا لانك سميره في اغلب الاوقات

— نعم اني سمير هذا الشريف الباسل ونحن نلعب معاً في ساعات الفراغ غير انه لم يعلمني شيئاً مما تقول

فتبسم لاشينسكي تبسم الازدرآ وقال ـ هذا الشريف ؟ . .

– نعم وهل تحسبه غير ذلك ؟

– ومن يعرف حقيقة امره ؟

ـ الكل يشهد لهذا الفتى بالشرف والشجاعة الغريبة

ـ لهذا الفتى ؟

ـ ماذا تريد ان تقول ايها القبطان ؟ اني لم افهم مرادك

ـ وهل هو فتىً في الحقيقة ؟

ـ كيف لا وعمره لا يربي على العشرين سنة ؟ أفتريد ان نسميه شيخاً ؟

– أرى انك لا تريد ان تفهم مرادي . . فلندع القبطان تمبستا وشأنه ولنواصل اللعب

وكان الاثنان ومن حولهما نحو خمسة عشر جندياً من الدلماتيين جالسين في خيمة فسيحة الى حيث كان يختلف الجنود للراحة واللهو

وكان القبطان لاشينسكي ضخم الجسم غليظ الهيئة كثيف شعر الرأس والشاربين له عينان برّاقتان وانف احمر على الدوام من كثرة ادمان شرب الخمر . واما رفيقه بربنيانو فكان برتبة ملازم في الجيش وهو من اهل فينيسيا طويل القامة رقيق الجسم شديد العضل جميل الوجه اصفره اسود الشعر دمث الاخلاق . وكان لاشينسكي مرتدياً درعاً ثقيلة ومتقلداً سيفاً على فخذه . واما بربنيانو فكان عليه اللباس الفينيسي الجميل وهو صدرة موشاة بالذهب واصلة الى ركبتيه وسراويل حريرية ولم يكن معه من السلاح الا خنجر وسيف خفيف وكل اماراته كانت

تدلُّ على انه عريق في الحسب والشرف

واستمرَّ الاثنان يلعبان والجنود الدالماتيون يلهون بالنظر اليهما . وقد خسر لاشينسكي ايضاً كل ما بقي لديهِ من الدراهم وهو يلعب ويشرب خمراً قبرصية من زجاجة كبيرة كانت بازائهِ حتى انتفخت اوداجه وبرقت عيناه واشتد احمرار انفه . وكان من وقت الى آخر يُسمَع قصف المدافع فتهتز لذلك مصابيح الخيمة وجوانبها

وبينا كان القوم جالسين كما وصفنا دخل الخيمة فتى بهيُّ الطلعة قد ارتدى رداءً طويلاً اسود وعلى راسه خوذة تزينها ثلاث ريش زرقاء . فأجال نظره في اولئك الناس وقال بلهجة الازدراء — انتم هنا تلهون وتلعبون والاعداء يحاولون هدم حصون القديس مرقس بما يصبّونهُ عليها من القذائف النارية فالذي يحب ان يبقى هنا فليبقَ ولكني اريد ان يتبعني رجالي الى مواقف الخطر

فلما سمع الجنود الدالماتيون هذا الخطاب هبوا الى اسلحتهم فتناولوها ولبثوا ينتظرون الامر . وكان ان لاشينسكي عندما رأى الفتى داخلاً وسمع كلامه نظر اليه باحتقار وقال — هذا انت ايها القبطان تمبستا ؟ . . ولكني اعهدك شجاعاً مقداماً فيمكنك ان تدافع عن حصون القديس مرقس وحدك بدون ان تشوّش علينا سكينتنا لان فاماغوسطا لم يُكتَب لها ان تسقط هذه الليلة مهما أطلق عليها الاعداء من ادوات التدمير

فلما سمع تمبستا هذا الكلام القى يده على مقبض حسامه وارسل نظرة حادة الى لاشينسكي . .

كان هذا الفتى رشيق القوام بديع الصورة ذا عينين نجلاوين وفم صغير وشعر حريري طويل. وكان الجنود يحبونه الى درجة العبادة بالنظر الى لطفهِ وجمالهِ وبسالتهِ وكانوا في مسامراتهم يقولون انه اجمل فتاة على وجه الارض . وقد كان في حال دخوله الى الخيمة بسلاحهِ الكامل وعلى صدره درقة (ترس) فولاذية عليها رسم ثلاث نجيمات يعلوها تاج الدوقات وكانت قبضة سيفه من الفضة الخالصة وهو اشبه بالسيوف التي كان يستعملها نبلاء الفرنساويين في ذلك الزمان

ألقى تمبستا يده على مقبض سيفه وقال للقبطان لاشينسكي — ماذا تقصد بهذا الكلام ايها القبطان ؟

فهزَّ لاشينسكي كتفيه وقال ـ اردتُ ان أقول ان الاتراك لايستطيعون ان يستولوا على فاماغوسطا واننا اقوياء اشداء فسنقاومهم ونردّهم على اعقابهم الى القسطنطينية او صحرآ العرب

قال ـ ظننتك تشير بكلامك اليَّ وليس الى الاتراك

قال ـ انت والاتراك سيّان في نظري

ولما سمع بربديانو هذا الكلام وقد كان من المولعين بالقبطان تمبستا ومن اعوانهِ استشاط من الغيظ وهبَّ من مجلسهِ يريد الانقضاض على لاشينسكي غير ان تمبستا اشار اليهِ بالتوءَدة والسكون وقال ـ لا يليق بحماة فاماغوسطا ان يقتتلوا لسبب طفيف كهذا فاذا احبَّ القبطان لاشينسكي ان يخاصمني لينتقم مني بسبب الخسارة التي اصابتهُ هذه الليلة او اذا كان مرتاباً بشجاعتي كما سمعتُ البعض يتناقلون كلامه . . .

فقاطعهُ لاشينسكي قائلاً — لقد كذب كل من قال اني ارتبت بشجاعتك .. نعم اني مرتاب برجوليتك لانك لا تزال فتى حديث السن لا تستحق ان يُضفر على رأسك غار الشجاع المجرَّب ومع هذا ...

— قل ما بالك قطعت حديثك ؟

—أُقسم بالقديس ستانيسلاف حامي بولونيا انك تزدري بي

— اراك ماهراً في صناعة معرفة خفايا القلوب

— نعم نعم انت تزدريني بكل تحة . ومع ان هذا الاسم الذي اتخذته لنفسك عظيم ومخيف [١] ولكنك لم تزل غلاماً مع ان نفسي تحدثني بغير ذلك

فامتقع وجه تمبستا وقدحت عيناه شراراً وقال — منذ اربعة اشهر وانا اقاتل الاتراك بكل شدة وبأس وقد رأيتني انت وجميع الجنود اجازف بحياتي في سبيل الدفاع المجيد ومع هذا فانت تسميني غلاماً . فقل لي هل أُتيح لك في كل حياتك ان تقتل من الاتراك بقدر ما أُتيح لي في هذه الاربعة اشهر فقط ؟ . غير انك لم تأتِ الى هنا بدافع وطني بل اتيت لتكسب لنفسك ثروةً كبيرة وتعود الى بلادك بولونيا خالي البال منشرح الصدر

فانقلبت سحنة لاشينسكي وقال — لعلك تريد ان تقول هذا الكلام عن نفسك

— انت غير مصيب في زعمك والدليل على ذلك هو هذا التاج —

١) تمبستا كلمة ايطالية معناها الزوبعة او العاصفة

تاج الدوقات — المرسوم على ترسي

— اذا كان هذا فخرك فانا استطيع ان ارسم على ترسي تاجاً ملوكيًّا وليس تاج دوقات ومهما يكن من الامر فان كنت دوقًا او دوقةً فليس لك شجاعة ان تقف في وجهي لنحكم بيننا السيوف

— انك ستندم على هذا الكلام ! .. اما حقوقي الدوقية فليس لاحدٍ ان ينكرها عليَّ بمجرَّد سيماء وجهي كما انه ليس لاحد ان ينكر عليك تفوّقك في الحيلة والدناءَة

واذ سمع البولوني هذا الكلام عجّ عجيجًا شديدًا وما عتم ان تناول حسامهُ ووثب يريد ان يهجم على تمبستا . غير ان هذا ارسل اليه نظرة اخترقت احشاءَه وسمرته في مكانه تسميرًا . وللحال ارتفعت جلبة الحاضرين فامتشقوا حرابهم وتحفزوا ليهجموا على لاشينسكي ويقطعوه تقطيعًا . فرفع تمبستا يده فسكت الجميع . ثم قال لخصمه — اذاً فانت مرتاب في رجوليتي ؟ فما دام الامر كذلك فلا بُدَّ من الامتحان .. انت تعلم ان شابًّا من فتيان الاتراك واظنهُ من الشجعان المجرّبين يخرج كل يوم من معسكره فيدنو من اسوار قلعتنا ويدعو رجالنا الى مبارزته فردًا فردًا . فهل تريد ان تقبل دعوته لنرى رجوليتك

قال — وهل تظنني جبانًا حتى اخشى مبارزة مثل هذا الصعلوك ؟ فاعلم باني لست فينيسيًّا ولا دالماتيًّا لتخيفني سطوة فرد من الاتراك وهم انفسهم يشهدون لي بالبسالة النادرة

قال — حسن أَفتنازله غدًا ؟

قال ـ لا احبّ اليَّ من ذلك

قال ـ وسأنازله انا ايضاً فالذي يفوز به تكون له الارجحية في الرجولية والبأس

قال ـ ومن ينازله اولاً ؟

قال ـ اني افوّض حلّ هذا الامر اليك

قال – قد عوّلتُ ان أنازلهُ اولاً لاني اكبر منك سنًّا وبعد ذلك تنازلهُ انت فنرى ثباتك وبسالتك

قال – هذا هو الصواب اذ الاصلح لنا ان نبارز الاعدآء لا انفسنا لئلا يُقال ان حُماة فاماغوسطا يفتكون بعضهم ببعض بدلاً من الاتحاد ضد العدو

قال – اصبت وثق بان حسامي سيحزُّ غداً عنق هذا التركي فلا يبقى لك مجال لمبارزته

فهزَّ تمبستا كتفيه ووجه خطابه الى الجنود قائلاً ـ هيا بنا الى الحصون لان نار العدو تتهدّدها بشدة. ثم التفَّ بردائهِ وخرج من الخيمة. فتبعهُ بربنيانو والجنود الى حيث أراد

وكانت الليلة حالكة الظلام وجميع نوافذ البيوت على جانبي الشارع مقفلة مظلمة ولم يكن يؤذَن لاحد ان يوقد مصباحاً في الشارع. وكانت اصوات المدافع تقصف من وقت الى آخر فيزيدها ذلك الليل البهيم دوياً وهولاً. وكان بربنيانو سائراً الى جانب تمبستا صامتاً هاجساً وبعد حين قال لهُ ـ ارى ايها القبطان اننا في اشدّ المواقف حرجاً واذا لم تبادر

حكومة فينيسيا الى ارسال المدد فان فاماغوسطا لا تثبت طويلاً امام قوات العدو الهائلة

فاجابه تمبستا ـ ارى ان لا نستسلم الى اليأس ولا تخور عزائمنا . واذا ابطأت الجمهورية في ارسال المدد فذلك لانها مهتمة الان بحماية املاكها في دالماتيا . وزد على ذلك فان سفن الاتراك تمخر على الدوام في الارخبيل وبحر ايونيا لتمنع عنا كل مدد

قال ـ ولهذا فانا ارى ان ساعة الهلاك قد دنت ولا تلبث فاماغوسطا الجميلة ان تسقط في يد الاعدآء

قال ـ الاجدر بنا ان نموت في ساحة المجد والشرف من ان يقبض علينا الاتراك وينحروننا كالاغنام لان السلطان كما سمعتُ قد امر بذبح جميع حامية فاماغوسطا انتقاماً منها لعنادها وعدم تسليمها سريعاً

قال ـ بالصواب نطقت فخيرٌ لنا ان نموت تحت انقاض فاماغوسطا من ان نقع في قبضة الاعدآء ونحن في قيد الحياة

وكانوا قد وصلوا الى الحصون حيث كان الخفرآء والجنود يشتغلون بالترميم ونسآء فاماغوسطا يساعدنهم بنقل اكياس التراب والرمال والحجارة لتقيهم نار العدو الغير المنقطعة



الفصل الثاني

﴿ صفحة من التاريخ ﴾

كانت مدينة فنيس من امهات مدائن ايطاليا وقد اكتسبت شهرة عظيمة في الاحقاب القديمة

في سنة ٤٥٢ للميلاد غزا ايطاليا قومٌ من برابرة شمالي اوروبا . وكان بقرب فنيس المذكورة طوائف من السكان . فلما دهمتهم هذه البلية فرَّ بعضهم من وجه مطارديهم وقصدوا سواحل البحر واتخذوها لهم مسكنًا وكانوا يعيشون بالتجارة وصيد السمك واستخراج الملح . وكان هناك عدة جزر صغيرة متقاربة بعضها لبعض . فاخذ القوم يقيمون فيها الابنية ويستوطنونها . وتوارد اليها الناس من اكثر الجهات وانضموا الى اولئك القوم . ولم تكن الا مدة قصيرة حتى ازدهت تلك الجزر بالابنية والقصور الفاخرة واصبحت كمدينة واحدة متصلة بعضها ببعض بالجسور والقناطر المستظرفة . وعلى توالي الايام اشتهر اهلها في التجارة والقوة البحرية اشتهاراً عظيماً

وكانت هذه الجزر في اول الامر منفرزة ومستقلة عن بعضها ولكنها في سنة ٦٩٧ اتحدت معًا واقامت عليها رئيسًا عامًا ليسوسها ويدبر امورها ومن ذلك اليوم صارت تحسب جمهورية باسم جمهورية فينيسيا او البندقية وكانت تابعة السلطنة الشرقية . وبقيت تابعة لها الى القرن العاشر حين استقلت استقلالاً تامًا . ولم تلبث ان قويت شوكتها فأخضعت كل الاساكل

البحرية في دالماتيا (على شطوط بحر الادرياتيك) وغيرها من المقاطعات المجاورة وصارت تعدُّ اقوى واغنى دولة في اوروبا ولاسيما في عمارتها البحرية

وما زالت شوكة الفينيسيين (سكان جمهورية فينيسيا) تزداد وتقوى يوماً بعد يوم حتى انهم في القرن الحادي عشر جهزوا عمارة عظيمة مؤلفة من مئتي سفينة وارسلوها لمساعدة المشتبكين في الحروب الصليبية الاولى ثم ساعدوا الصليبيين بعد ذلك على فتح مدينة القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وحازوا منها على غنائم وافرة وتحف متكاثرة من نفائس الجواهر والمعادن وانواع الصور والتماثيل وجاءوا بها الى بلادهم . ولكن بعد ذلك بقليل اخذ طالعهم في سقوط وهبوط اذ زاحمتهم مشيخة جنوا واستظهرت عليهم في جملة وقائع

وفي القرن الخامس عشر حارب فينيسيا السلطان سليمان الثاني واستولى على عدة جزائر لها في الارخبيل الرومي ولكن لما كانت شوكة الفينيسيين لا تزال عظيمة في اوروبا وصيتهم منتشراً في كل اطرافها خافهم مجاوروهم وحسدهم ملوك الافرنج على ثروتهم ونجاحهم فاخذ البابا يوليوس الثاني يهيج الدول عليهم وبعد ان استمال اليهِ بعض الملوك اعتصب معهم على اذلال تلك الجمهورية . فكان امبراطور المانيا وملك فرنسا وملك اراغون والبابا يوليوس المذكور رؤساء تلك العصبة فأغاروا على البندقية واستخلص البابا جميع المدن التي كانت للبنادقة في الاراضي الباباوية واسترجع فردينند ملك نابولي المدن التي استولت عليها الجمهورية المذكورة على سواحل كالابريا . فلما رأى اهل البندقية انهم محصورون

من كل جهة وليس لهم نصير اضطروا ان يستسلموا للتقادير وانحصروا داخل اسوار مملكتهم . وفي سنة ١٥٧١ استخلص منها السلطان سليم الثاني جزيرة قبرس . وسنة ١٦٦٩ استولى السلطان محمد الرابع على جزيرة كريت

فهذه المصائب مع غيرها اضعفتها وأضرّت بتجارتها جداً ولكنها استمرت في استقلالها الى القرن الثامن عشر حينما خضعت لفرنسا . وسنة ١٧٩٨ استولت عليها دولة النمسا وبقيت تحت تصرف احكامها الى ان أُلحقت بمملكة ايطاليا سنة ١٨٦٦ [١]



كانت المملكة العثمانية على عهد السلطان سليم الثاني [٢] مؤلفة من بلاد كثيرة واقاليم متسعة كمصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وغيرها . وفي زمانه نشبت حرب شديدة بين المملكة العثمانية وجمهورية فينيسيا واستولى العثمانيون على جزيرة قبرس (سنة ١٥٧١)

وكانت هذه الجزيرة من املاك الفينيسيين فرأى السلطان سليم ببقائها في ايديهم ما يهدّد بلاده في آسيا الصغرى فضلاً عن انها كانت لقرصان البحر المتوسط (لصوص البحر) ملجأً اميناً . فكان هؤلاء القرصان يمخرون اغلب الاحيان في جهات البحر على سفنهم السريعة فيسلبون كل ما وقع في ايديهم من مراكب العثمانيين . بل كثيراً ما كانوا يغتنمون الفرص فيهجمون بسفنهم على الموانئ العثمانية ولا يلبثون ان يعودوا عنها بالاسلاب والغنائم التي لا تحصى . فطلب السلطان من حكومة

---

١) قطف الزهور ٢) ابن السلطان سليمان الثاني وليّ الملك سنة ١٥٦٦ وتوفي سنة ١٥٧٤

البندقية اخلاء جزيرة قبرس فأبت عليه ذلك كل الاباء وأخذت تستعد لحرب جديدة مع الدولة العثمانية وتحشد عساكرها المنبثة في الشرق وفي دالماتيا

ولم يكن في قبرس وقتئذ الا خمس مدن وهي نيكوزيا وفاماغوسطا وبافو وأرنيس ولاميسو . وكانت الاثنتان الاوليان محصنتين بالحصون والابراج وفي امكانهما المدافعة والثبات في وجه العدو بخلاف المدن الباقية لانها لم تكن ذات حصون ومعاقل تقيها هجوم الهاجمين

وكانت حامية الجزيرة قبل اعلان الحرب قليلة جداً فبادرت حكومة البندقية وارسلت اليها بحراسة السفن الحربية ثمانية آلاف جندي من المشاة ومئتين وخمسين من الخيالة وفرقة قوية من المدفعية فصار عدد حماة الجزيرة (مع حاميتها التي كانت قبلاً) عشرة آلاف مقاتل من المشاة المسلحين بالحراب والبنادق واربعمئة من جنود دالماتيا المشهورين برمي النبال وخمسمئة من المدفعيين . وفضلاً عن هؤلاء جاء ايضًا الى هذه الجزيرة جمهور من المتطوعين من ابناء الأُسر الشريفة من البنادقة ليدافعوا عن بلادهم على نفقاتهم الخاصة

واذ شعر حماة الجزيرة بوصول الجيوش العثمانية بقيادة مصطفى باشا وهو اذ ذاك اكبر وزراء الدولة العثمانية وعلموا انهُ يقود جيشًا كثيفًا يفوقهم عشرة اضعاف قرَّ رأيهم ان يتخذوا في بادئ الامر خطة الدفاع فقط اذ ليس في استطاعتهم ان يقاوموا هذه القوات الهائلة ريثما تتمكن حكومتهم من ارسال نجدات اليهم . ثم انقسموا كتيبتين تحصنت احداهما في مدينة نيكوزيا والاخرى في مدينة فاماغوسطا وعُين لقيادة

حامية نيكوزيا القائد نيقولو داندولو والاسقف فرانشسكو كونتاريني ولقيادة حامية فاماغوسطا استوري بالوني وبراغادينو ولورينسو تيبولو واليوزباشي مانولي سبيلوتو الالباني

وحالما وطئت الجيوش العثمانية ارض الجزيرة سارت بقيادة مصطفى باشا الى مدينة نيكوزيا واحاطتها احاطة السوار بالمعصم . وفي ٩ ايلول سنة ١٥٧٠ اشتبك بين الفريقين قتال هائل اجلى عن انتصار العثمانيين وانخذال البنادقة . واذ رأى هؤلاء ان لا قِبل لهم بمقاومة العثمانيين اقرّوا على التسليم بشرط التأمين على حياتهم . ولما وقفوا على رضى القائد العثماني بذلك ووعده الصريح لهم بالعفو عنهم وحقن دمائهم فتحوا ابواب المدينة فدخلها العثمانيون بالتهليل والتكبير . ولكن مصطفى باشا لم يفِ بوعده بل امر جنوده فهجموا على الحامية والاهلين ووضعوا السيف فيهم وقتلوا منهم اكثر من عشرين الف نفس . وهكذا تحوّلت هذه المدينة الجميلة في طرفة عين الى مقبرة هائلة تسقيها انهر الدماء . ولم يبقَ في قيد الحياة من الحامية واهالي المدينة الاّ عشرون رجلاً من اشراف الفينيسيين ابقاهم مصطفى باشا ليأخذ فدية عنهم اموالاً وافرة . وابقى ايضاً اجمل نساء نيكوزيا وبناتها فاتخذ بعضهنّ لنفسه وارسل الباقيات الى الاستانة للاتجّار بهنّ

وبعد ان فرغ العثمانيون من نيكوزيا زحفوا على فاماغوسطا وفي عزمهم ان يُنزلوا بها ما انزلوا بنيكوزيا

وفي ٢٩ تموز سنة ١٥٧١ دنوا من اسوارها واضرموا عليها لظى

الحرب ولكنهم تراجعوا عنها في الهجوم الاول والثاني بخسارة كبيرة فصوّبوا عليها افواه المدافع واخذوا يصلونها ناراً حامية بدون انقطاع . وكان حماة فاماغوسطا قد آلوا على انفسهم ان لا يسلموا المدينة الاّ بعد ان تُهرق دماؤُهم . وكان الاهلون رجالاً ونساءً يدافعون عنهــا مع الجنود بهمة لا تعرف الملل

وفي شهر تشرين الاول من السنة المذكورة وصلت نجدة الى فاماغوسطا قوامها الف واربعمئة جندي فقوي بها رجاء الحامية غير ان الاهاين كانوا واثقين بقرب سقوط المدينة لان عدد المحاصرين كان لا اقل من ستين الفاً . وفوق هذا فقد رست في مياه الجزيرة عمارة بحرية عثمانية موءلفة من مئة سفينة عليها اربعون الف جندي بقيادة الاميرال علي باشا قائد الاسطول العثماني

وكانت الاقوات والذخائر تقلُّ شيئاً فشيئاً في فاماغوسطا مما اضعف امل حُماتها في الثبات طويلاً وتخوّفوا ان يفرغ من عندهم الزاد فتكون في ذلك هلكتهم وفناؤُهم

وعلى هــذه الصورة امست فاماغوسطا مطوّقة من جميــع الجهات بحلقات نارية وحديدية ليس لها منها مفرّ

هكذا كانت احوال فاماغوسطا في مستهلّ حوادث هذه الرواية



الفصل الثالث

حصار فاماغوسطا

لما عاد الجنود الدالماتيون بقيادة القبطان تمبستا الى الاسوار طرحوا حرابهم جانباً وتناولوا بنادقهم وانضموا الى رفقائهم الذين كانوا منبثّين في كل مكان من الاستحكامات للحراسة . وكان المحاصرون يطلقون نيرانهم على معاقل المدينة بين كل فترة واخرى فيجاوبهم الفينيسيون بالمثل وهم كلما تهدَّم حصن او سقط جدار يعمدون الى اصلاحه وترميمه تحت ستر الظلام

وكان القبطان تمبستا ينظر الى بسالة جنوده ونشاط نسآء المدينة في مساعدتهم ولكنهُ حين يتأمل في تناقص الزاد والذخيرة وانهدام الحصون الواحد تلو الآخر كان يتنهَّد وتدمع عيناه . ولكنهُ كان عندما تخطر في باله هذه التصوُّرات يسير بين الجنود فيحثّهم على الثبات وبذل المهج في سبيل الدفاع المجيد عن حوزتهم او يقف على بعض المرتفعات من الحصون ويُرسل رائد الطرف الى كل مكان مع ان صديقه الملازم بربنيانو كان دائماً يتوسَّل اليه ان لا يعرّض نفسه للخطر

وبينا كان في احدى جولاتهِ واقفاً وحده وقد أَمعن في التخيلات شعر بيد تلمسه وقائل يقول له همساً باللغة النابولية العامية — هذا انا يا سيدتي لا تخافي !

فذُعر القبطان تمبستا والتفت الى القائل وهو يكاد يستشيط غضباً

وقال – هذا انت يا جابر ؟

– نعم يا سيدتي

– اخرس ولا تجسر ان تدعوني هكذا لاني لا أشآء ان يعرفني احد في تكتّمي

– اعذريني ايتها السنيورة ... لا لا .. بل اعذرني ايها السنيور فانتَ مصيب بتكتمك

وكان المتكلم رجلاً طويل القـامة رقيق الجسم اسمر الوجه اسود العينين وقد ارتدى ثوبًا طويلاً كأهل البادية والتفَّ بعباءَةٍ وتقلّد من تحتها بندقيتين وخنجراً وجعل على رأسه كوفية بيضآء

فقال له تمبستا – من اين جئتَ يا جابر وما وراءكَ ؟

قال – من معسكر الاتراك . وقد علمتُ ان الويكونت جوسر لا يزال حيًّا يُرزَق ولم يُنَل بسوء

– وهل انت متحقق ذلك ؟

– نعم فقد تحققت ذلك من احد المقرَّبين الى مصطفى باشا نفسهِ

– وهل تظن انه صادق في قوله ؟

– نعم ايتها السنيورة

– قلتُ لك ان لا تخاطبني هكذا

– عفواً يا سيدتي ولكننا الان في خلوة وليس مَن يسمعنا

– لا بأس ولكني أَخشى ان تغلط امام احد . والان هل تعلم الى اين اخذوه ؟

ـ كلاَّ يا سيدتي ولكني لا البث ان أعلم ذلك قريباً . فقد صادقتُ واحداً من رجال مصطفى باشا واستحكمت بيننا الالفة الى حدّ انه لم يعد يرتاب بي وقد وعدني بان يطلعني على هذا السرّ غداً

فزفر القبطان تمبستا زفرة حارة وتفجَّر الدمع من مقلتيه فغطَّى وجههُ بيديه ووقف صامتاً . فتأثر جابر جداً ومسح دموعه مراراً ووقف ينظر اليه ويودّ ان يفديه بحياته ثم قال ـ لو استطيع يا سيدتي ان أشتري سعادتكِ وراحة بالكِ بدمي لما تأخرتُ لحظة ولكن ...

فقاطعهُ القبطان وهو يكاد يذوب حزناً وقال ـ أنا أعلم يا جابر انك مخلص لي كل الاخلاص

ـ وسابقى يا سيدتي الى آخر قطرة من دمي عبداً رقيقاً لكِ

ـ لا تقل هكذا يا جابر فانا اعتبرك صديقاً عزيزاً لا عبداً كما تقول

فتهلّل جابر سروراً وقال ـ لقد تركتُ وطني وقومي وانضممتُ الى والدكِ الدوق ابولي دوق نابولي العظيم لانه انقذني من أسيادي القساة وأَغدق اليَّ من نعمه فحييتُ الى الان في كنفهِ بتمام الرغد والحبور . أَفلا يليق بي وهذه حالتي ان أسفك دمي في سبيل خدمتكِ والاخلاص لكِ ؟

فلم تجبهُ الحسناء بل أطرقت برأسها الى الارض وقد غرقت في تأملاتها ثم رفعت رأسها وقالت ـ قد كنت في نابولي سعيدةً لا شيء يشغل قلبي ولا همّ يقلق افكاري ولكني ما كدتُ أطأ ارض فينيس الجميلة واتعرَّف بهِ حتى تولاَّني الحزن واستولت عليَّ الكآبة ... بضعة ايام فقط قضيتُها الى جانبه في فينيس فكانت أَصفى ايام حياتي واعتقدت ان الدنيا ستظلّ

باسمةً لي الى منتهى الازمان . غير ان الفراق كان لا بُدَّ منه فأنه أعلن عزمهُ على التطوُّع في الجيش المحارب هنا في قبرس ولم أشأ ان اثني عزمه عن القيام بهذا الواجب المقدس ... وهكذا ودَّعني وجاء الى هنا وهو لا يعلم ماذا ينتظره من الاحزان والمكاره ... فقبض عليه الاعداءَ بعد سقوط نيكوزيا ولا اعلم الى اين اخذوه ... ولا يبعد انهم يسومونه الان من ضروب العذاب ما لا يستطيع احتماله لان الاسير عندهم معرَّض لكل انواع البلاء ... آه يا جوسر يا حبيبي اين انت الان وماذا حلَّ بك من المكاره والاشجان؟ فهل يُتاح لي ان أراك بعد هذا الفراق الطويل ؟

وكان جابر مصغياً اليها يشرب كلماتها شرباً فلما فرغت قال لهـا ــ الظاهر انكِ تحبينه كثيراً يا سيدتي !

ــ احبه ؟ نعم أُحبه يا جابر وأَهواه كما تحبُّ المرأة العربية في بلادك حبيبها وتتفانى في سبيل هواه

ــ ولكني أرى ان حبك له يفوق كل حب اذ ليس من امرأة في الكون تفعل ما فعلتِ فقد برحتِ قصركِ وابهتك في نابولي وارتديت لباس الرجال وجهَّزت على نفقتك الخاصة فرقةً من الجنود وجئت بهم الى مدينة يحاصرها نحو مئة الف من الاعداءَ الاشداءَ وعرَّضتِ نفسكِ للهلكة في كل دقيقة

ــ وهل تظن اني أستطيع البقاءَ في وطني وهو هنا يكابد المِحَن والاخطار ؟

ــ ولكن مَن ينقذكِ يا سيدتي في ذلك اليوم الرهيب حينما تسقط

فاماغوسطا بيد الاعدآء ويُعملون فيها السيف والنار ؟

ـ كلنا في يد الله يا جابر وخيرٌ لي ان اموت هنا قريبةً منه ولا أَسمع عن موته وانا بعيدة عنه

فارتعش جابر وقال ـ الموت والحياة في يد الله وليس لاحد ان يهرب من قضائهِ وقدره . فلنسلّم امرنا اليه سبحانه وتعالى وهو جواد رحيم . والان ماذا تأمرين ان افعل لاني منطلق في هذه الساعة الى معسكر الاتراك

ـ أهمُّ شيءٍ تفعله هو ان تجدّ في الاستقصآء والبحث عن المكان الذي يُقيم فيه جوسر . فمتى علمنا ذلك نسعى الى الاهتدآء اليه

ـ حسنٌ ففي الليلة القادمة تنجلي لكِ الحقيقة

ـ هذا اذا كنتُ لا ازال حيةً الى الليلة القادمة

فذُعر جابر وجحظت عيناه وقال ـ ماذا تقولين ايتها السنيورة ؟ وكيف استحوذ عليك مثل هذا الخاطر المخيف ؟

ذلك لاننا في فاماغوسطا وقنابل الاعداء تتهددنا في كل لحظة . فلسنا اذاً في وليمة اوفي هنآءٍ مقيم لان الموت يترصدنا كل دقيقة . ولكن ما لنا ولهذا . قل لي الان مَن هذا الفارس التركي الذي يدنو كل يوم من اسوار فاماغوسطا ويدعو فرساننا الى النِزال ؟

ـ هذا عبد القادر ابن والي الشام وهو أَشهر شاب في الجيش العثماني بشدة بأسه وقوة ساعده ومهارته في الفروسية . ولكن لمَ هذا السوءال يا سيدتي ؟

ـ ذلك لاني مزمعة ان ابارزه في صباح الغد

فبُهت جابر وقال ـ انتِ تبارزينه ؟ وكيف يصحُّ ذلك ؟ اني والله لاتلصَّصنَّ في هذه الليلة الى خيمتهِ ولا أدعنّه يرى نور الصباح لئلا يعود الى ازعاجكِ بدعوتهِ اياك الى النِزال

ـ لا تخشَ عليَّ سوءًا يا جابر فانت تعلم ان والدي كان اول فارس في نابولي وهو قد علّمني منذ الصِغَر جميع ابواب الفروسية بحيث أَستطيع الان ان اثبت في وجه ايٍّ كان من فرسان الاتراك

ـ انا واثق بمهارتكِ يا مولاتي الجميلة ولكني مع هذا أخشى عليكِ لان عبد القادر بطل عنيد لا يرجع عن خصمهِ الا قاتلاً او مقتولاً . فمن الذي يلجئكِ الى مبارزتهِ ؟

ـ القبطان لاشينسكي

فهزَّ جابر رأسه وقال ـ لا عجب في ذلك فقد لاحظتُ ان هذا النذل يضمر لكِ الشر منذ زمان وكلما نظرتُ الى سحنتهِ اقرأ فيها خفايا بواطنه الخبيثة وانا وان كنتُ ابن بادية فلا يفوتني شيءٌ من مثل هذه الامور

ـ فاسمع والحالة هذه لاطلعك على ما جرى بيننا . ثم سردَت له الخبر بتفاصيله

فذُعر جابر ووثب من مكانه كأَن افعى لدغتهُ ولم يلبث ان جرّد خنجره وصاح وهو في شدة التهيُّج ـ ان هذا الخنجر سيرتوي هذه الليلة من دماء هذا البولوني فلا يبقى من يلجئكِ الى مبارزة عبد القادر

فنظرت الدوقة اليهِ طويلاً ثم قالت ـ ليس ذلك برأيٍ يا جابر فانك لو

فعلت هذا الامر لقال الناس ان القبطان تمبستا قد خاف مقابلة خصمه فأرسل مَن قتل لاشينسكي ليتخلّص من العهد . وعليه فأرجو ان لا تمسّ هذا الانسان بضرر

ــ وكيف اذا تريدين ان أراكِ مصمّمة على مثل هذا الخطر وانا في قيد الحياة ؟ ان حياة جابر برمتها لكِ وانا من ابناء تلك العشيرة الذين يعرفون كيف يدافعون عن اسيادهم ويفدونهم بارواحهم

ــ لا ريب فيما تقول فاني واثقة بولائك واخلاصك ولكن القبطان تمبستا يريد ان يُظهر للملا انهُ لا يخاف شيئًا ولا يهاب احدًا وهذا يساعدني ايضًا زيادةً في التنكُّر

ــ كلاَّ يا سيدتي فاني لا أستطيع ان أفهم ما تقولين وأيسر شيءٍ أفعلهُ هو اني سأقتل هذا البولوني والسلام

ــ حذارِ ان تفعل شيئًا مما تقول

ــ ولكن يا سيدتي . . .

فقاطعتهُ قائلة ــ قلتُ لك اني لا أريد ان تمسّ لاشينسكي بأذى

فأطرق جابر الى الارض وهو يرتعش ويضطرب وقد انحدرت من مقلتيه دمعتان حارّتان مسحهما بكمّهِ وقال ــ عفوًا ايتها السنيورة فقد نسيتُ اني عبدٌ لك وان أقدس واجبات العبيد الطاعة لمواليهم

فاقتربت الدوقة اليه وألقت يدها الناصعة البياض على كتفه وقالت متأثرة ــ لا تعد الى مثل هذا الكلام يا جابر فانت صديقي ولستَ عبدًا لي

فحنى جابر رأسه وقال ــ انني لم أُخالف لكِ امرًا في الماضي وستجدينني

كذلك في المستقبل . ولكنني أُقسم بذاتكِ الكريمة اني لا أنتقمنَّ شرّ انتقام من عبد القادر ومن لاشينسكي اذا أُصبتِ بضرر اذ ليس لكِ وقتئذ ان تحولي دون مرامي

ـ حسن ايها الصديق الامين فاذا متُّ فانت حرٌّ ان تفعل ما تشآء... والان سِرْ على بركات الله لقضاء مهمتك اذ لم يبقَ الى الفجر الاّ وقت قصير

ـ اني ذاهبٌ يا سيدتي الى حيث تأمرين ولستُ بعائدٍ اليك في الليلة القادمة الا بما تتوقين الى الاطلاع عليه من اخبار السنيور جوسر

ثم سار الاثنان جهةَ الاسوار فاستدعى القبطان تمبستا الملازم بربنيانو وقال لهُ ـ مُر الجنود ان يكفُّوا عن اطلاق النار قليلاً ريثما يعود جابر الى معسكر الاتراك

فقال بربنيانو ـ سمعاً وطاعةً ايتها السنيورة وهل تأمرين بشيءٍ آخر ؟

ـ هذا كل ما اطلبهُ الان غير اني اسألك ايها الصديق ان لا تدعوني بعد الان الا باسم القبطان تمبستا لاني لا أُريد ان يعرفني احد في تنكُّري سوى ثلاثة اشخاص وهم انت وجابر وأريدزو

ـ عفواً ايها القبطان فقد نسيتُ

ـ مُر اذاً الجنود ان يكفُّوا عن اطلاق المدافع والبنادق بضع دقائق فقط ريثما يتمكّن جابر من الوصول الى وِجهتهِ

ولما كانت هذه الحسناء تعطي اوامرها بصفتها قبطاناً كان صوتها شديداً جريئاً واوامرها قوية نافذة لا تحتمل المراجعة كأنها من كبار القوّاد المجرَّبين

وكان جابر في هذه الاثناء قد انحدر بخفة الغزال عن الاسوار وراح ينهب الارض تحت ستر الظلام . واما الدوقة فعادت وخلت بنفسها وراء بعض المتاريس حيث لبثت مدةً وهي غارقة في تأملاتها البعيدة

وعاد حماة فاماغوسطا الى اطلاق النار وكان الاعداء يجاوبونهم بالمثل وهم يقتربون شيئاً فشيئاً من الاسوار

وبينا كانت الدوقة في خلوتها لاهية بأفكارها دنا منها الملازم بربنيانو وقال ـ هل علمتَ شيئاً جديداً ايها القبطان عن الويكونت جوسر ؟

فانتبهت الحسناء كمن حلم وقالت ـ كلاَّ ايها السنيور فلم أعلم شيئاً جديداً

ـ أفلم تتحقق على الاقل انه حيٌّ ؟

ـ يقول جابر انه لا يزال حياً وانه مُعتَقَل

ـ وفي اي مكان هو الان ؟

ـ لم يعرف جابر شيئاً من هذا

ـ يُخيَّل لي ان هؤلاء الاتراك لا يعرفون للشفقة معنىً ومن العجب اذا تركوه حياً الى الان

ـ وانا أرى رأيك وهذه الحالة الغامضة تزيدني قلقاً وارتباكاً . فقريباً وينبثق الفجر ويأتي الفارس التركي على عادته فأضطرُّ الى مبارزته وانا لا ادري ماذا تكون النتيجة فلو كنتُ عالمة بحالة جوسر لهان الامر ولكن ..

فقاطعها الملازم بربنيانو قائلاً ـ اسمح لي يا سيدي القبطان ان انزل انا عنك لمبارزة هذا الفارس فاذا متُّ فليس لاحد ان يبكيني لاني آخر سلالة اسرة الكونت بربنيانو

- ان هذا لا يمكن ان يكون

- ولكنني أخشى ان ينتصر عليك الفارس التركي

- سأبيّن لك ولجميع الفينيسيين شدّة بأس القبطان تمبستا . والان استودعك الله فاني ذاهبة لقضاء بعض شؤوني . قالت هذا وانطلقت في سبيلها ووقف بربنيانو ينظر اليها وهو معجب بقوة ارادتها وشدة عزمها وبسالتها



الفصل الرابع

﴿ المبارزة ﴾

ولما لاح فجر اليوم التالي انطلق القبطان تمبستا فقابل قائد الحامية وانبأه بعزمه وعزم لاشينسكي على مبارزة الفارس التركي . وحاول القائد ان يثنيه عن عزمه لئلا يحلّ به مكروه فتخسر فاماغوسطا بطلاً من اشدّ ابطالها فأبى تمبستا ان يذعن لمقاله وقام فودعه وعاد الى الاسوار حيث وقف على دكة مرتفعة تشرف على معسكر الاتراك وجعل تارةً يتأمل في قوات العدو الهائلة وطوراً ينظر متلهّفاً الى معاقل المدينة المتهدّمة والحصون المتداعية الى السقوط فيتنهّد وينصدع قلبه أسفاً وحزناً

وكان معسكر الاتراك على مسافة غير بعيدة عن المدينة وهو في بقعة فسيحة من الارض مُلئت بالالوف من الخيام والسرادقات وعليها الاهلة الذهبية والفضية التي كانت تسطع لامعةً بما ينعكس عليها من اشعة شمس الصباح . وبينها سرادق كبير عال من الانسجة الحريرية

الزاهية الالوان يعلوه العَلم النبوي الاخضر . في هذا السرادق كان يقيم الوزير مصطفى باشا قائد الجيش العثماني

وما ارتفعت الشمس قليلاً في القبة الزرقاء حتى ازدحمت البقعة الممتدة امام المعسكر بجماهير الجنود من مشاة وفرسان وقد تدججوا بالاسلحة الكاملة التي كانت تتلألأ بانعكاس اشعة الشمس عليها . وكانوا جميعهم ينظرون الى فاماغوسطا ولا يعتقدون انها لا تزال ثابتة قوية بعد كل ذلك التضييق والحصار العنيف المحدق بها من كل جانب فضلاً عن تداعي حصونها وسقوط ابراجها

وبينا كان تمبستا لاهيًا بافكاره وتأملاته أقبل القبطان لاشينسكي وهو في حالة القلق والارتباك . ثم جاء الملازم بربنيانو وجندي آخر من الصقالبة يقودان جوادين مطهّمين بالعدة الكاملة

وكان الاتراك والبنادقة قد كفوا عن اطلاق المدافع وسُمعت للحال اصوات المؤذّنين فانتشر جنود البنادقة على اسوار المدينة حيث جلسوا يأكلون طعام الصباح من الخبز القفار مغموسًا بالزيت وهذا كل ما بقي لديهم من الزاد . اما اهل المدينة فكانوا يتضوّرون جوعًا اذ لم يبقَ عندهم ما يسدّون به رمقهم فكانوا يقتاتون بالاعشاب وبعضهم كانوا يطبخون حساء من عظام وجلود الحيوانات التي كانت تسقط في اثناء الحرب . غير ان الجميع من جنود واهلين كانوا مصممين على ان يتجرّعوا كؤوس الموت ضمن اسوار مدينتهم ولا يُسلموا

ولما اتمّ المؤذنون صلاتهم برز من معسكر الاتراك فارس شاب له

من العمر نحو اربع وعشرين سنة وهو جميل الصورة وضيء الطلعة وقد امتطى صهوة جواد من الخيول العربية الكريمة وارتدى سراويل حريرية عريضة وردية اللون وسترة جميلة موشاة بالذهب وجعل على رأسه عمامة حريرية تعلوها خوذة جميلة لها ريشة بيضآء طويلة من ريش النعام . وكان في يده اليمنى حسام احدب وفي منطقتهِ خنجر طويل . وكان يسير في اثره حامل سلاحه وقد حمل بيديه عَلَمًا حريريًّا ابيض يعلوه هلال من ذهب

وانطلق هذا الفارس يعدو جهة اسوار فاماغوسطا متّجهًا الى ناحية حصن القديس مرقس وهو أَحسن حصون المدينة وأَمنعها . ولما صار على بضع مئات من الاذرع من سور الحصن وقف جوادَهُ وأَمر حامل سلاحه ان ينصب العلم في الارض اشارةً الى مجيئهِ الى البنادقة تحت راية السلام . وبعد ان دار بجواده بضع دورات التفت جهةَ الاسوار وصاح بأعلى صوته باللغة الايطالية قائلاً — ان عبد القادر ابن والي الشام يدعو ابطال البنادقة لنزاله . فمن كان فيه دم الابطال فليبرز اليَّ . واذا لم يوافني احد منكم فاني أَصِمكم جميعًا بالجبن والخوف لانكم لا تستطيعون ان تنازلوا ابطال الهلال . فأصيخوا الى ندائي يا حُماة فاماغوسطا واعلموا اني بالانتظار!

وما كاد يتمُّ كلامه حتى خرج من احد ابواب السور القبطان لاشينسكي وقد امتطى احد الجوادين اللذين كان يقودهما بربنيانو ورفيقه ورفع سيفه بيده واتجه نحو الفارس التركي وهو يقول — لبيك يا عبد القادر فاني خارج اليك وانا على ثقة بانك لا تعود هذه المرة عن اسوار

فاماغوسطا لاني قد صممت على ان اكسر جمجمتك واقطّعك تقطيعاً مع جوادك ! .. واعلم ان لي رفيقاً قد ازمع على اقتحامك ايضاً وأقسم ان يطير رأسك عن جثتك

وكان الفارس التركي قد رفع سيفه في الهوآء وجعل يجول بجواده وهو يلعب في صهوته ويتفنن ما شآء بما اجتذب اليه الانظار . فلما سمع كلام لاشينسكي اجابه بصوت جهوري — اني بكل سرور أنتظركما كليكما!

وكان القبطان تمبستا قد خرج ايضاً ممتطياً جواده ومتقلداً اسلاحه ولم يلبث ان حاذى لاشينسكي دون ان يكلمه بكلمة . فالتفت اليه لاشينسكي وقال — فانت اذاً مصمم على مبارزته ؟

— لا ريب في ذلك

— هل تريد ان نقترع على اّينا يجب ان يبارزه اولاً ؟

— كما تشآء لان ذلك سيان عندي

فاقترعا فاصابت القرعة لاشينسكى

فاقشعرّ بدنه ولكنه تجلد وقال — حسن فسأقتحمه انا اولاً ولا أَلبث ان ادقّ عنقه . . . واذا عاندني البخت والتوى عليّ القصد فلي امل بانك ستنتقم لي مع اني مشكك في رجوليتك وقوة ساعدك

فقال تمبستا هازئاً — لعلك مصيب في رأيك ولكننا سنرى الان اينا أثبت جناناً وأقوى ساعداً

وكان الجنود قد انزلوا بامر قومندان القلعة جسر الخندق المحيط بالسور فاجتازه الفارسان وسارا بعد ذلك في سهل واسع الى جهة عبد

القــادر . وكان حُماة فاماغوسطــا وجمهور من الاهلين قد ازدحموا على الاسوار ليشاهدوا هذه المبارزة وما فيهم الاَّ مَن تمنى النصر لتمبستا ولاشينسكي . وكانوا يصيحون باعلى الاصوات :

– تشجع ايها القبطانان المجيدان وعلّما هذا التركي درساً مفيداً

– أظهرا للاتراك قوة السيوف الفينيسية

– اكسرا من حدة هذا الفارس المتغطرس

– دوسا باقدامكما سيفه وألجما الى الابد فمه

– ليحيَ القبطان تمبستا

– ليحيَ القبطان لاشينسكي

– لتحيَ جمهورية فينيسيا الجميلة

– ليحيَ ابناء هذه الجمهورية العظيمة ...

وكان القبطان تمبستا لا يزال صامتاً ووجهه يطفح بشراً وثباتاً كأنه خارج الى وليمة فاخرة وليس الى ميدان الكفاح بخلاف القبطان لاشينسكي فقد كان ممتقع الوجه مضطرب الجنان وبالرغم عن افتخاره ببسالته واقتداره فقد شعر بخفقان في قلبه وارتخاء في اعصابه وخيّل له ان جواده سيخونه في اثناء النزال فقال لرفيقه ـ ارى ان جوادي ليس على ما اشتهي وربما كان سبباً لفشلي فكيف ترى ايها القبطان ؟

ـ أرى انه من الجياد القوية التي لا تُبارى

ـ الظاهر انك لستَ خبيراً بالجياد ولكن لا عجب في ذلك لانك لستَ بولونياً

ـ هو كما تقول ايها السنيور. ولكني خبير بالاسلحة وسترى الان مبلغ خبرتي

ـ انك لن تستطيع ان تزيل الريب من نفسي فيما يتعلق برجوليتك واذا اتفق لي اني لم اقوَ على سحق هذا التركي فلا أدري ماذا يكون شأنك معه . ولكن ثق ايها الصديق باني سأجتهد في اخماد انفاسه حباً الى انقاذ حياتك وحياتي .

ـ لا اجسر ان اشكّ في ذلك ايها السنيور

ـ واذا حدث ما لم يكن في الحسبان واستطاع هذا الشاب الجميل ان يجرحني فانا ...

فقاطعه تمبستا قائلاً ـ ماذا تفعل حينئذٍ ايها القبطان ؟

ـ حينئذٍ اعتنق الاسلام واصبح من رعايا السلطان لئلاَّ يجهز عليَّ بعد ان يجرحني .. واعلم ايها الرفيق اني أنظر الى الحياة نظراً صحيحاً فما دمنا نحيا على هذه الارض مرة واحدة فقط فيجب ان نحتفظ بها بكل وسيلة

ـ لله درّك ايها القبطان من فارس مسيحي صنديد؟

ـ لعلك تهزأ بي ! فاعلم باني لا افتخر بالتقوى ولا بالتديّن ولا أتظاهر بما ليس فيّ . وسيان عندي ان اكون مسيحياً او مسلماً وانما الذي يهمني هو ان اكسب ثروة تمهد لي اسباب الرغد في الحياة . ولعلكِ لستِ كذلك ايتها السنيورة !

فجحظت عينا تمبستا وارتعش من الغضب وقال ـ ماذا تقول ؟

وكيف دعوتني ؟

فقهقه لاشينسكي ضاحكاً ضحكة مستطيلة وقال ـ دعوتك بالاسم الذي يجب ان ادعوك به . وهل تظنين ايتها الحسناء اني غبي بهذا المقدار بحيث لم أستطع ان أعلم ان القبطان تمبستا هو فتاة متسترة بلباس الرجال؟ ولقد أحببتُ ان ابارزك ليس لأُلحق بك اذىً بل لأَخترق درعكِ الفولاذية وأظهر للناس مَن هو هذا القبطان تمبستا فيكون ذلك وسيلةً للضحك والتسلية

فنظر اليه تمبستا شزراً وقال ـ وانا لا أضنّ عليك بهذه التسلية . وعليه فبما انكَ قد اكتشفت سرّي فيجب ان يرى سكان فاماغوسطا اذا لم يظفر بنا هذا الفارس مشهداً آخر

ـ وما الذي تريدينه بهذا الكلام ؟

ـ اريد ان اقول اني اودُّ ان يرى الفينيسيون كيف يقتتل حُماة فاماغوسطا

ـ لا بأس ولكني اعدكِ باني سأترأف بك ولا اخترق الاَّ درعك الفولاذية

فحدجه تمبستا بنظر حادّ وقال ـ اما انا فاعدك باني سأغمد خنجري في حنجرتك لئلا تبوح بسري الذي اودُّ كتمانهُ

ـ حسنٌ فلنؤجل هذا الكلام الى وقت آخر لان الفارس التركي ينتظرنا. الا ترينهُ يظهر علامات الضجر والقلق ؟ ثم ساق جواده وانطلق الى حيث كان عبد القادر وهو يقول في نفسه « يا ليتني استطيع ان أبوح

باسمي الحقيقي لهذه الحسناء»

ولما صار الفارسان على مسافة عشر خطوات من عبد القادر وقفا جواديهما. فقال لهما عبد القادر – من منكما يريد ان ينازل اولاً الاسد الدمشقي ؟

فتقدم لاشينسكي الى الامام والحسام مصلت بيده وقال: دبٌّ من احراش بولونيا فاذا استطعتَ ايها الشبل الدمشقي ان تفتخر بمخالب طويلة حادة كالتي للوحوش الضارية القاطنة في براري واحراش وطنك فانا افتخر بما فيَّ من قوة الوحوش السارحة في مستنقعات وطني. والان ترى كيف اني بضربة واحدة من يدي ابطش بك فاطحن جمجمتك واشقك نصفين

فضحك عبد القادر لدى سماعه هذا الكلام وقال – ان حسامي ينتظرك واريد ان ارى كيف يقدر الدب البولوني الضخم ان يثبت امام الشبل الدمشقي

وبعد هذا الكلام تحفز كلٌّ من الفارسين للوثوب ووخز لاشينسكي جواده بالمهماز وانطلق كالسهم على خصمهِ فتلقاه عبد القادر بقلب لا تروعه المهالك وتجاولا مدة وهما بين كرٍّ وفرٍّ تارةً يفترقان وطوراً يطبقان على بعضهما وكلٌّ منهما يود ان يفوز بخصمه

وكان اكثر من مئة الف عين تنظر الى هذين البطلين وتفننهما في القتال وكلُّ فريقٍ يودُّ الفوز لفارسهِ. اما الدوقة فكانت واقفة جانباً لا تكاد ترفع بصرها عن الفارس التركي وهي تدرس حركاتهِ وابواب

فروسيتهِ ومهارتهِ في المسايفة . ولما كانت قد درست هذا الفن على ابيها الدوق فلم يخفَ عليها شيءٌ من ابوابه وشعرت بانها تستطيع ليس ان تثبت امام عبد القادر فقط بل ان تغلبهُ ايضًا

واخيراً حمل لاشينسكي على خصمهِ حملة عنيفة فوثب عبد القادر من امامه بخفة لا تُبارى ثم كرَّ راجعًا عليه ودار حولهُ وطعنهُ طعنةً نجلاء اخترقت درعه وجرحتهُ في جنبهِ جرحًا بليغًا فتدفق الدم منهُ كمن قربة وهوى لاشينسكي بجسمهِ الى الارض مغشيًّا عليهِ . فصاح عبد القادر ان الاسد قد قهر الدب وجندله

وفي الحال ارتفعت اصوات التهليل والتكبير من معسكر الاتراك بما دوى له السهل بأجمعهِ

فاما رأى تمبستا ذلك امتشق حسامهُ ودنا من عبد القادر وهو يقول: انك قد فزت عليه ايها السنيور فبقيتُ انا

فنظر اليهِ عبد القادر مدهوشًا وقال: فانت اذاً لم ترل مصممًا على مبارزتي بعد الذي رأَيتهُ من اهوال الطعان ؟ أَفلا تربأُ بنفسك ايها الفتى وترحم شبابك الغض؟ اني لا أَودُ ان تذبل مثل هذه الزهرة الجميلة

فصبغ الدم وجه تمبستا وقال بثبات جأش: اني قدخرجتُ لمبارزتك ايها الفارس ولست بعائد عنك الا بعد ان تعلم شدَّة ساعدي وقوة جناني ولعل مدة الكفاح ستطول بيننا فأَرى ان تاخذ لنفسك نصيبًا من الراحة

فضحك عبد القادر وقال: لا ارى من نفسي ميلاً الى الراحة لتيقني بسرعة انتصاري عليك لانك نحيف البنية ضعيف القوة لا تستطيع الثبات

امام الاسد الدمشقي مهما كنت شجاعاً في اساليب الطعان

- غير ان سيفي حادٌ واخشى ان ينالك بسوء

- يظهر لي انك شبل ايضاً ولكنك لا تستطيع ان تكون اشد بطشاً من الدب البولوني

- لا بأس من الامتحان

- ارجو اولاً ان تنبئني باسمك

- اسمي القبطان تمبستا

- لقد سمعت بهذا الاسم كثيراً . فانت اذاً من ابطال البنادقة !

- كما انك من ابطال الاتراك الذين سارت بذكرهم الركبان

- اني أسالك ايها الفتى الجميل ان تكفَّ عن عزمك وتعود الى قومك لئلاَّ أحرمهم بطلاً شريفاً وجريئاً نظيرك

- قلت لك اني خرجت لمبارزتك فلن انثني عن عزمي فهيا بنا

ثم ابتعد الخصمان عن بعضهما وهما يتحفزان ويتهيآن ولم يلبثا ان أطبق كلٌّ منهما على الاخر وهما يظهران من أساليب الطعان ما حيَّر الابصار . وكان القبطان تمبستا يدور بجواده بخفة غريبة أدهشت عبدالقادر واعيتهُ فصار يهتم بالمدافعة عن نفسهِ ويفكر في وسيلة تمكنهُ من الانقضاض على خصمهِ والبطش بهِ . وفي هذه اللحظة دار تمبستا حوله دورتين سريعتين وضربهُ بسيفهِ ضربة كادت تكون القاضية ولكنها اصابت الدرع فاخترقتها . فاستشاط عبد القادر غضباً وهجم على خصمهِ ولكن تمبستا كان اخف منهُ فدار حوله ايضاً بضع دورات وضربهُ بحسامه ضربة خفيفة

اطارت خوذتهُ عن راسهِ . فدهش عبد القادر لهذه الخفة وهذه الحركات الغريبة وكان جواده قد اعيا ايضاً ولم يعد في امكانهِ مجاراة جواد تمبستا

وكان البنادقة يشاهدون من اعلى الاسوار رشاقة تمبستا وتخاذل خصمهِ فطفقوا يصيحون باعلى الاصوات :

ـ تشجع ايها القبطان تمبستا فان الله مع الشجاع ! .. اقهر خصمك وجندله سريعاً ليفهم الملا قوة سواعد البنادقة وشدة بأسهم !

وكان الاتراك ايضاً يهتفون لفارسهم باصوات كالرعد وهم يهللون ويكبرون ويرجون له نصراً قريباً

وظل القبطان تمبستا يدور بجواده حول عبد القادر ويظهر من ضروب الفروسية والتفنن حتى اتقدت عيناه السوداوان وصعد الدم الى وجهه واختلجت شفتاه الحمراوان وانتفخ منخراه وصارت هيئتهُ اشبه بهيئة جنديٍ قديم قد شم رائحة البارود . وكان جواده يزداد خفة ووثوباً بينا كان جواد عبد القادر قد اعيا ولم يعد في استطاعته الثبات

ولما شعر تمبستا بكل ذلك ابتعد عن خصمهِ قليلاً ثم صاح بهِ واطبق عليهِ ولم يلبث ان طعنهُ بحسامه في جنبه طعنةً صاح لها عبد القادر الماً ورفع يده وهم بالهجوم فخانتهُ قواه وسقط عن ظهر جواده الى الارض . فارتفعت اصوات البنادقة عن الاسوار بالتهليل والهتاف

ولما رأى تمبستا ما حلّ بعبد القادر ترجل عن جواده والسيف لا يزال مجرداً في يده فدنا منهُ وقال : لقد انتصرت عليك ايها الفارس فهل تعترف بذلك ؟

فقال عبد القادر وقد ظهر الانكسار في وجههِ ـ نعم واسألك ان تجهز عليَّ لان ذلك من حقوقك

قال ـ ان القبطان تمبستا لم يعتد ان يقتل الناس الذين ليس لهم قوة على المقاومة ... انك شجاع يا عبد القادر وانا اهبك الحياة !

فاجاب عبد القادر بصوت يخنقهُ الحزن ـ لم يدر في خلدي ان يكون بين المسيحيين من هو ذو مروءة وإباء نظيرك فاشكرك ولن انسى معروفك

قال ـ فالى الملتقى اذاً ايها السنيور وانا من صميم القلب اسأل الله لك الشفاء العاجل

وما كاد تمبستا يعود الى جواده حتى رأى عشرة فرسان من الاتراك قد خرجوا من معسكرهم وعدوا نحوه وهم يتوعدون ويتهددون بكل ويل . فلما رأى عبد القادر منهم ذلك تحامل على نفسهِ ونهض من مكانهِ وصاح بهم قائلاً ـ ارجعوا ايها الانذال والا فاني آمر بتقطيعكم ارباً ارباً . فوقف الفرسان حائرين ولم يلبثوا ان عادوا الى معسكرهم بالفشل . واما تمبستا فكان قد علا صهوة جواده وقفل راجعاً الى فاماغوسطا ...

وما كاد يبتعد قليلاً عن ميدان النزال حتى رفع لاشينسكي راسهُ فنظر في اثره وقال بصوت خافت : سنلتقي مرة أُخرى ايتها الحسناء

واتفق ان حانت من عبد القادر التفاتة اليهِ فلما رآه يتحرك دهش وقال لحامل سلاحهِ : كنت اظن ان هذا الرجل قد مات

قال ـ فهل تامر يا سيدي ان اذهب واجهز عليه ؟

قال ـ لا بل قُدني اليهِ

ثم سار جهة لاشينسكي وهو يتوكأ على حامل سلاحه والدم لا يزال يسيل من جرحه

فلما رآه لاشينسكي مقبلاً ارتعد من شدة الخوف وقال له: يظهر انك تريد ايها الافندي ان تجهز علي! فارجو ان لا تفعل ذلك لاني مذ الان اخوك بالدين. فقد صممت ان اعتنق الاسلام واكون في جانبكم

فنظر اليهِ عبد القادر بازدراء وقال: حسن فسآمر بمعالجتك

فسرَّ لاشينسكي وقال في نفسهِ: اني اريد الحياة لانتقم منكِ ايتها الحسناء ولو تكتمتِ بجميع اسماء الرجال والابطال...



الفصل الخامس

﴿ في سبيل الجهاد ﴾

عاد القبطان تمبستا الى فاماغوسطا فاستقبله الجنود والاهلون بالتصفيق والهتاف وسائر مظاهر الاعجاب والابتهاج واعتبروه اشدَّ الابطال وأمهر الفرسان وأجمعوا على حبهِ واكرامهِ وافتدائهِ بالمهج والارواح. وكانوا يتوقعون ان يزداد الاتراك شدَّة وتضييقاً في الحصار اخذاً بثار عبدالقادر غير ان الامر لم يكن كما توقعوا. وقد مضى بعد ذلك يومان وثلاثة والمحاصرون ساكنون هادئون كأنهم في هدنة حتى ان مصطفى باشا نفسهُ لم يعد الى عادتهِ السابقة من الظهور كل صباح امام صفوف الجنود

لاستنهاض هممهم وحثهم على الجهاد والكفاح . فحار البنادقة في هذا الامر وزعموا ان ذلك قد يكون بسبب عبد القادر . غير ان انكسار فارس من الفرسان لا يدعو الى مثل هذا التأثير في الجيش . ومهما يكن من الامر فان حالة البنادقة كانت تزداد سوءًا فانهم وان لم يتعرضوا في هذه الايام لنيران العدو غير ان الجوع كان يفتك بهم فتكًا ذريعًا فيبيتون و كل منهم ينتظر منيته عاجلاً

وكان القبطان تمبستا والملازم بربنيانو ينتظران بفروغ صبر عودة جابر ليطلعا منه على حوادث الاتراك ويعرفا سبب هذا الانقلاب الغريب . وفي احدى الليالي بينا كانا واقفين على حصن القديس مرقس رأيا رجلاً يتسلق جدار الحصن بخفة السعدان فلم يشكا في انه جابر بعينه فلبثا شاخصين اليهِ حتى اذا دنا منهما وتحققاه جيدًا ناداه تمبستا بصوته الرخيم فوقف بغتة ثم عدا نحو سيده وهو يقول ـ لا بد انك قد قلقت لغيابي يا مولاي

فقال تمبستا بلهفة ـ نعم لاني خشيت عليك سوءًا وخطر لي ان الاتراك ربما ارتابوا بك فقتلوك

ـ لا تخشَ سوءًا يا سيدي فلا يرتاب احد بي مع اني كنت في يوم مبارزتك لعبد القادر في اشد الاضطراب والارتباك وقد رآني الكثيرون واقفًا انتظر عودة عبد القادر وفي كل ملامحي ما يشير الى ما تأَجج في صدري من حب الانتقام منهُ لو استطاع ان يلحق بك ضررًا

فضحك تمبستا وقال ـ وكيف صحتهُ الان ؟ عسى ان يكون قد

شفي تماماً

ـ نعم ايها السنيور ولا يلبث بعد يومين او ثلاثة ان يعود الى حالته السابقة .. غير ان لديّ خبراً غريباً

ـ وما هو ؟

ـ ان القبطان لاشينسكي يتعافى ايضاً

فقال تمبستا وبربنيانو بصوت واحد ـ لاشينسكي ؟ وهل هو حيٌ للان ؟

ـ نعم

ـ وكيف ذلك وقد قتلهُ عبد القادر في ساحة النزال ؟

ـ لم يمت لان في الادباب البولونية عظاماً قوية

ـ وهل عرف عبد القادر ان لاشينسكي حيٌّ ولم يجهز عليه او انه لم يستطع ذلك

ـ ان عبدالقادر لم يفعل ذلك لان لاشينسكي جحد الدين المسيحي واعتنق الاسلام وانضم الى الاعداء

ـ لا يرجى من هذا الرجل خيرٌ لنا او لاعدائنا

ـ وسمعت انهم سيعينونه يوزباشياً في جيشهم وقد وعده احد الباشوات بذلك

فقال تمبستا ـ دعنا من امر هذا الرجل ياجابر لانه لايستحق ان يكون موضوع الحديث وهات ما لديك من الاخبار الجديدة عن السنيور جوسر

ـ ليس لديّ ما انبئك به ياسيدي وقد سعيت جهدي لأقف على

شيء من اخباره ومكان اسره فلم اتوفق الى ذلك وهذا هو سبب ابطائي في المثول بين يديك

– عجباً وكيف لا يعلم احد بأمره ؟ فالظاهر انهم قتلوه منذ زمان ولم يعودوا الى ذكره

– انا لا اشك في بقائه حياً ولا ريب عندي انه معتقل في بعض الحصون الساحلية لاننا لو فرضنا قتله لما بقي الخبر مكتوماً

– اذا كان جوسر لا يزال حياً فكيف لا يذكر احد ولو عن مكان سجنه على الاقل ؟

– لا اعلم ولكني ارجو ان اسمع شيئاً عنه بعد مدة قصيرة

– اني معتمد بعد الله عليك يا جابر فحقق آمالي

وكان الثلاثة واقفين على مرتفع من الحصن وهم تارة ينظرون الى معسكر الاتراك وطوراً الى اسوار فاماغوسطا . وبينا هم كذلك سمعوا ضجة ارتفعت من المعسكر وتلتها اصوات الابواق والطبول ورأوا المشاعل قد اتقدت في جميع جهات المعسكر ثم اخذت تتجمع في وسطه حيث كان منصوباً سرادق مصطفى باشا القائد العام

فقال تمبستا – لعلهم يتحفزون للهجوم علينا في هذه الليلة هجوماً عنيفاً

فقال جابر – كلا يا سيدي بل انما ذلك فتنة شرعوا بها منذ الصباح

– وماذا يقصدون بها ؟

– يقصدون ان يُرغموا القائد العام الى تضييق الحصار فقد انقضى

اسبوع كامل دون ان يعملوا شيئاً وهذا ما أثارهم

ـ ولكن ما سبب هذا السكون والتراخي ؟ ان ذلك قد اذهلنا ورابنا

ـ سببه الحب . فقد هام مصطفى باشا بحسناآء من الفينيسيات وانقطع اليها ناسياً مهمته التي جاآء الى هنا لاجلها

ـ ومن هي هذه الحسناآء التي خلبت لب الوزير واستهوت قلبهُ ؟

ـ هي ابنة احد كبار الفينيسيين وقد قتل ابوها بعد سقوط نيكوزيا فوقعت اسيرة في ايدي الاتراك كما وقع السنيور جوسر . وموقفها الان من احرج المواقف لان جميع الجنود يرون فيها السبب الوحيد لانقطاع الحرب ولذلك فهم يطلبون موتها سريعاً ولا بد لمصطفى باشا ان يجيبهم الى طلبهم لانهُ لا يستطيع ان يسكن ثائرهم بغير ذلك

ـ مسكينة هذه الفتاة فانهم سيذيقونها الموت الزؤام وليس لها ذنب الا جمالها

ـ وارى ان الاتراك بعد قتل هذه الحسناآء سيعمدون الى التشديد في حصار فاماغوسطا وربما هاجموها من جميع الجهات

ـ ونحن مستعدون ان نستقبلهم الاستقبال اللائق بهم لان سيوفنا لا تزال ماضية وقلوبنا قوية

ـ فهز جابر راسه وقال ـ ولكنهم يفوقونكم اضعافاً

ـ ونحن نفوقهم ثباتاً في الدفاع عن حوزتنا

فنظر جابر الى سيده نظرة الاعجاب وقال ـ والان فهل تسمح لي

يا مولاي بالعودة الى معسكر الاتراك ؟

ـ اذهب ايها الصديق وليوفق الله مسعاك . ثم امر تمبستا الملازم بربنيانو ان يبقى في مكانه وسار مع جابر الى جهة الاسوار وهما يتجاذبان الحديث

فقال تمبستا ـ قلت ان لاشينسكي لا يزال حيًا فارجو ان ترقب جميع حركاته وسكناته لانه شيطان في صورة انسان وقد ابغضني بغضًا شديدًا

ـ وما الداعي الى ذلك ؟

ـ لانه اكتشف سري وعرف من انا

ـ فهو اذًا يحبكِ ايضًا !

ـ لعله كان يحبني قبل ان ظفرت بعبد القادر اما الان فقد انقلب حبه الى عداء

ـ ان هذا اللعين لن يفوز بشيء من امانيه وسأخمد انفاسه اذا بدا منه اقل اهانة في حقكِ واني سأراقبهُ مذ الان اشد مراقبة لانه وغد وخائن . والان فالى الملتقى يا سيدتي

ولما قال هذا انحدر عن الاسوار ومضى لشأنه وعاد تمبستا الى حيث كان اولاً فابتدره بربنيانو بقوله ـ ارى ان الاتراك قد سكن ضوضاؤهم فالظاهر انهم قتلوا تلك الفتاة المسكينة

فنظر تمبستا الى جهة المعسكر ثم تنهد وقال ـ لعلك مصيب في قولك . . . وهل ينتظر جوسر مثل هذه الخاتمة . ثم زفر زفرةً حارة وانصرف ليأخذ نصيبًا من الراحة فشيعه بربنيانو وهو في اشد التأثر

وفي اليوم التالي مساءً عاد جابر الى فاماغوسطا فاجتمع بالقبطان تمبستا وعلائم الاضطراب بادية في وجهه . فذعر تمبستا وخشي ان يكون لذلك علاقة بجوسر . وكأن جابر قد ادرك ما جال في خاطره فقال ـ قد عدت اليك ياسيدتي سريعاً لانبئك بان الساعة الرهيبة قد دنت واذا لم تحصل معجزة سماوية فان فاماغوسطا ستسقط غداً في ايدي الاتراك

ـ وما الذي حملك على هذا الظن ؟

ـ ليس ما اقوله ظناً ياسيدتي فقد جئت الان من معسكر الاتراك وتركتهم يتأهبون للهجوم في هذه الليلة تأهباً لم يسبق له نظير

ـ وماذا جرى لتلك الفتاة الفينيسية التى هام بها مصطفى باشا وثارت بسببها الفتنة ؟

ـ ان مصطفى باشا نفسه قد قتلها على مرأى من جميع الجنود لانه لم يرَ مخرجاً من موقفه الحرج الا بقتلها . ولكنه بعد ان قضى عليها حمي غيظه على فاماغوسطا وأقسم ان ينتقم من حماتها انتقاماً هائلاً اخذاً بثار محبوبته . ولما سمع الجنود قسمه هتفوا له طويلاً وصمموا على الهجوم هذه الليلة وأقسموا ان لا يعودوا هذه المرة عن فاماغوسطا الاّ ظافرين غانمين . ولما كان عددهم يفوق عدد حماة فاماغوسطا عشرة اضعاف فلم يبقَ للبنادقة امل من الثبات والنجاة من القدر المحتوم وعليه فأرى من الصواب ان تعتصمي يا سيدتي بالفرار قبل ان تسد في وجوهنا مذاهب النجاة وهيا بنا نذهب في هذه الساعة الى محل امين لاتصل اليه ايدي الاعداء

فقطبت الدوقة جبينها وقالت لعبدها ـ ويحك يا جابر وهل نسيت اني جئت الى هنا للحرب والكفاح وليس للفرار من وجه الاعداء فما هذا الذي تخاطبني به ؟

ـ ذلك لانه لا يجب ان تموتي فقد جئنا الى هنا ليس للحرب بل لغاية اخرى وهي البحث عن سيدي السير جوسر

ـ مهما تكن الغاية ومهما تكن الامال فقد دفنتها الان في اكفان الماضي وما انا في هذه الساعات الهائلة الاَّ احد ضباط حامية فاماغوسطا وعارٌ عليَّ ان اتركها في نزعها الاخير واركن الى الفرار

ـ انك ياسيدتي تعرضين نفسك لاشد الاهوال فقد سمعتُ مصطفى باشا يحرض جنوده على الفتك الذريع بالبنادقة وان لا يُبقوا منهم ولا يذروا

فقالت الدوقة برصانة ـ فعليٌّ اذاً ان اذوق كاس الموت مع سائر الرفقاء لان القبطان تمبستا لم يتصف بالجبن والخوف من الموت في ساحات الوغى فدع التقادير تجري في اعنتها

فتعجب جابر من ثبات عزمها الذي لم يرَ له شبيهاً عند اربط الرجال جاشاً وأثبتهم عزماً ورأى نفسهُ مضطراً للاذعان والانقياد الى سلطتها السامية فقال ـ حسنٌ ياسيدتي انت تريدين ان تموتي هنا فسابقى الى جانبك وخير لي ان اموت عند قدميك من ان اموت بعيداً عنك



الفصل السادس

﴿ سقوط فاماغوسطا ﴾

وما كاد جابر يتمم كلامه حتى ارتفعت اصوات الابواق والطبول وخرجت كتائب الاتراك من معسكرها وزحفت الى جهة الاسوار وهي تهلل وتكبر وتصيح صياح الغيظ والحقد . ثم دوت اصوات البنادق والمدافع كالرعود القاصفة فاجابتها حصون فاماغوسطا بالمثل وقد خف جميع البنادقة من الجنود والرجال الى الاسوار واخذوا يمطرون الاعداء بصيّب السهام والقذائف النارية والقواد يجولون بينهم يوقظون عزائمهم وينهضون هممهم لانهم ايقنوا بان العدو زاحف عليهم الان بخيله ورجله فلا يعود عنهم او يبيدهم عن آخرهم . وقد تألب جميع البنادقة على الاسوار الا النساء والاطفال فانهم لجأوا الى كنيسة المدينة بالبكاء والعويل

وكان الاتراك يدنون شيئاً فشيئاً من الاسوار وقد سددوا اليها آلات الثغر والهدم وجعلوا هدف مقذوفاتهم على الخصوص حصن القديس مرقس لان بقية الحصون كانت قد ثُغرت وهدمت ولم يبق سالماً بعض الشيء الا هذا الحصن فحملوا عليهم بجميع قواهم يريدون ان يدكوه دكاً

انقضى هزيع من الليل وقد حمي وطيس الحرب والاتراك يزدادون باساً واشتداداً ودنواً من الاسوار والبنادقة يزدادون ياساً وتضعضعاً

وقد خارت عزائمهم وبلغ منهم الضنك والضيق وايقنوا بحلول اجلهم

وكان القبطان تمبستا واقفاً في طليعة جنوده الدالماتيين في اشد مواقف الخطر وهو يؤلّف قلوبهم على خوض غمرات القتال . وبينا هو يجول بينهم من مكان الى آخر اصابته شظية من شظايا مقذوفات العدو القته جريحاً

وكان جابر يتبعه كظله لا يفارقه طرفة عين فلما رآه قد سقط نشب اليه فاحتمله بين ذراعيه وانطلق به كوميض البرق وقد طار رشده وانحدرت الدموع من عينيه كوابل المطر

نزل جابر بسيدته عن الاسوار ودخل المدينة واخذ يعدو بكل قوته الى جهة معلومة واخيراً وصل الى محل في احد الاسوار تحت احد الابراج المدعو « براغولا » وكان البرج قد تهدم فرفع جابر بعض الحجارة من طريقه ونزل بسيدته الى مغارة فسيحة تحت الارض كانت كمستودع يذخر فيها الجنود بعض المؤونة والاسلحة وكانت ملآنة بالبراميل الفارغة والاثاث وبعض الآنية . وكانت الظلمة حالكة فوضع جابر سيدته على الحضيض ودار يبحث في بعض جوانب المغارة على مشعل لم يلبث ان عثر عليه لمعرفته محتويات المغارة من قبل فأوقده وركزه في الارض ثم عمد الى سيدته فأضجعها على فراش من قش وجده هناك ونزع عنها عدة الحرب فرأى جرحا بالغاً في جنبها الايسر وفيه شظية صغيرة ناشبة فيه فانتزعها للحال وضمد الجرح بقطعة من النسيج بلها بقليل من فضلات الزيت الباقية في بعض البراميل . ولما اتمّ عمله ترك

سيدته ملقاة على الفراش بدون حراك ونهض الى باب المغارة فأحكم سده بالحجارة وعاد وهو يقول في نفسه: اننا هنا في منجاة من كل خطر وليس لاحد ان يصل الينا في هذا الملجأ الخفى لانه تحت الارض. ثم جثا الى جانب سيدته وامسك بيدها وناداها باسمها ففتحت عينيها قليلاً وقالت ـ هذا انت يا جابر ؟

فامتلأ جابر فرحاً وقال ـ الحمد لله ان سيدتي لم تمت

فرفعت الدوقة راسها ونظرت الى ما حولها وقالت ـ ماذا حدث ياجابر واين نحن الان ؟

ـ انك يا سيدتي في امان فلا تخافي قنابل الاعداء لانها لا تصل الى هذا المكان

فاستوت الدوقة في الفراش وقالت بصوت يخنقه الحزن ـ اذاً سقطت فاماغوسطا !

ـ لا يا سيدتي لم تسقط بعد

ـوهل يليق بي ان اكون مختبئة هنا والخطر محدق برفاقي من كل جانب ؟

ـ ولكنك جُرحتِ ولم يعد في امكانك القتال

ـ جُرحت ؟ نعم نعم فاني اشعر بألم شديد في صدري. ولكن ما هذا الضجيج الهائل الذي اسمعهُ ؟

ـ ان الاتراك ياسيدتي يهاجمون حصن القديس مرقس وقد دنوا منه كثيراً

ـ فالمدينة اذاً سقطت في ايدي الاعداء

ـ لعلها لم تسقط بعد ولكن سقوطها متحتم ان لم يكن الليلة فغداً وليس في امكان حصن القديس مرقس ان يصدّ هجمات الاعداء الأ ساعات قلائل فقط وقد فرغت منهُ معدّات الدفاع وسقط الابطال من حوله اكداساً بعضهم فوق بعض

فأنّت الدوقة انيناً محرقاً وقالت ـ اسألك ايها الصديق ان تنطلق الان الى ساحة القتال وترى ما يجري هناك . فذهل جابر وقال — وكيف اتركك هنا وحدكِ ؟ قالت —اذهب ولا تخشَ عليّ بأساً واذا لم تفعل ذلك فاني اذهب بنفسي ولو كان في ذلك موتي العاجل

واذ كان جابر يعرف شدّة عزم سيدتهِ نهض في الحال وخرج من المغارة بعد ان سدَّ مدخلها بحجارة اخرى وانطلق الى حيث امرتهُ سيدته وهو يقول : ليكن الله معي لاظلّ الى جانبها احميها من كل خطر

وفي اثناء ذلك كان الاتراك يزدادون حدةً في القتال ودنواً من الاسوار وقدخسروا عدداً لايحصى من الرجال . ولميلبثوا ان امتلكوا بعض الاسوار الخارجية وحملوا بعنف على حصن القديس مرقس حيث كان معظم من بقي حياً من البنادقة بقيادة الباسل استوزي بالوني حاكم فاماغوسطا وقائد حاميتها الذي ظلّ رابط الجاش لايبدو عليه شيء من خوار العزم والميل الى التسليم . ولما رأى ان معدات الدفاع قد فرغت من الحصن امر جنوده ان يدافعوا عن الحصن وعن انفسهم بالسلاح الابيض ولا يسلموا للاعداء وفيهم رمق من الحياة

اما الاتراك فلما رأوا استحالة استيلائهم على حصن القديس مرقس بقوة النار عزموا على اخذه بالهجوم ولو خسروا في ذلك نصف الجيش وبهذا العزم اخذوا يتسلقون الاسوار من جهات مختلفة ويمتلكوها واحدا واحداً والبنادقة يصدُّونهم ويقاتلونهم قتال اليأس

وكان جابر في ذلك الوقت قد وصل الى بعض مرتفعات حصن القديس مرقس فوقف يتأمل فيما صارت اليه حالة فاماغوسطا . وفيما هو يجيل نظره هنا وهناك ابصر الملازم بربنيانو في طليعة الدالماتيين بدلاً من القبطان تمبستا فدنا منه وسأله عما ستكون عاقبة هذه المعمعة . فقال له بربنيانو — اننا نقاتل الان قتال اليأس . ولكن اين القبطان تمبستا وماذا جرى له ؟

— انه في محل امين وقد جُرح جرحًا بليغًا

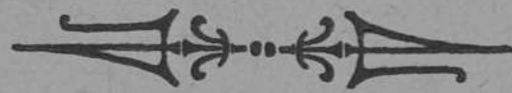
— لقد رأيتك حين حملته من هنا فالى اين نقلته ؟

فدنا منه جابر واسرّ اليه قائلاً — نقلته الى مغارة برج براغولا وقد سدّت الانقاض مدخلها بحيث لا يستطيع احد ان يجتاز الى داخلها وسأقودك الى هناك اذا قدّر لك الله النجاة

— حسن فعد الان ياجابر الى مولاك ولا تعرض نفسك لنيران العدو لانّ في حياتك نجاةً له

وما كاد بربنيانو يفرغ من كلامه حتى كانت الاسوار كلها في ايدي الاتراك وقد تراجع عنها البنادقة وتألبوا في مكان واحد امام الحصن وكان الصباح قد تبلج وانتشر الاتراك على اسوار فاماغوسطا انتشار

الجراد وهم يهولون ويتهددون ثم انطبقوا على البنادقة انطباق القضاء المبرم فتلقاهم البنادقة بكل ما بقي لديهم من القوة وقد حمي بين الفريقين وطيس الطعن والضرب واصدت التلال والاودية بصليل الاسلحة وانين الجرحى ولم تكن الا ساعات قلائل حتى أجلت المعمعة عن انتصار الاتراك وفناء البنادقة وقد تراكمت القتلى من الجانبين كالجبال وجرت كالانهار دماء الابطال واستسلم من بقي في قيد الحياة من البنادقة للفرار فتبعهم الاتراك وانبثوا في المدينة يقتلون وينهبون ويدمرون حتى لم يُبقوا ولم يذروا . واما النساء والاطفال الذين لجأوا الى الكنيسة فقد عفا عنهم مصطفى باشا وحقن دماءهم



الفصل السابع

﴿ في المغارة ﴾

ولما تحقق جابر سقوط فاماغوسطا ورأى بعينه انتصار الاتراك وهلاك البنادقة قفل راجعاً الى مغارة برج براغولا فدخلها بتمام الحذر والانتباه فألفى سيدته نائمة والعرق يتحلب من جبينها . فطفح قلبهُ سروراً وجلس بالقرب منها وأمعن في عالم الخيال وهو لا يدري ماذا تخبئه له ولسيدته الايام . وان هو لكذلك اذ فتحت الدوقة عينيها وكأنها دهشت لوجودها في تلك المغارة لا تسمع قعقعة السلاح ولا ترى احداً من الجنود . فدنا منها جابر وقال — لاتضطربي لشيء ياسيدتي فانت هنا بعيدة عن كل خطر

فقالت – وماذا حلّ بالمدينة ؟

قال – انها قد سقطت في ايدي الاعدآء وقضي الامر

فتأثرت الدوقة وانهملت دموعها وقالت – وماذا حلّ بسكان فاماغوسطا وحاميتها ؟

– قد حل بهم الدمار والهلاك كما جرى مثل ذلك لاهل نيكوزيا وحاميتها

– وماذا جرى للملازم بربنيانو فهل رأيته بعد مصرعي ؟

– نعم ياسيدتي رأيته وسألني عنك وعرف مخبأك

– لعله اذا بقي حياً يبحث عني فيجدني

– وانا ارجو ذلك

ثم تململت المريضة وقالت – ألا تستطيع يا جابر ان تعطيني قليلاً من المآء لابرّد به جوفي فقد برّح بي العطش

– ليس الى ذلك سبيل ياسيدتي اذ ليس هنا ولا قطرة مآء فهل تريدين ان اقدم لك شيئاً من الخمر القبرسية ؟

– هات ما شئت

فعمد جابر الى بعض الانية الموجودة في المغارة حيث وجد شيئاً من بقايا الخمر فملأ كاساً وقدمها الى الدوقة قائلاً – اشربي ياسيدتي فان الخمر الان أنفع بكثير من مآء فاماغوسطا الذي امتزج بالدمآء

تجرعت الدوقة الكأس وقالت – لا اعلم ياجابر ماذا ينتظرنا الان وهل يُتاح لنا ان نخرج من هذا القبر ونسعى في خلاص جوسر؟

—لا أكتم عنك اننا الان في اشد المواقف خطراً وليس لنا الا باب واحد للفرج وهو ان أسعى اولاً للاجتماع بعبد القادر واطلاعه على ما نحن فيه من الضيق والشدة ولا اظن الا انه يبادر حالاً الى اغاثتنا والافراج عنا فقد غلبتهِ انت في ساحة النزال ووهبتِ له حياته فأصبح مَديناً لكِ

فاشرق وجه الدوقة وقالت ـ ولكنه مدين للقبطان تمبستا فاذا علم ان ذاك القبطان هو هذه الفتاة المطروحة هنا وعلم انها هي التي قهرته فماذا يكون عمله ؟

ـ يبادر حالاً الى هنا ليقدم فروض الخدمة والعبادة لهذه الفتاة الباسلة الشريفة

فصعد الدم الى وجه الدوقة وقالت ـ وهل انت واثق بمروءة عبد القادر وانه لن يغدر بنا ؟

ـ لا اشك في ذلك لانه ذو مروءة وشرف ومما تحققته عنه من بعض اخصائه وذويه انه ابيُّ النفس شريف المبدأ كما انه باسل ومقدام

ـ افعل ما يسددك اليهِ رأيك الصائب

ثم صمتت الدوقة وأمعنت في الخيال . ونهض جابر فتقلد سلاحه والتفَّ بعباءتهِ وتقدم الى باب المغارة بعد ان تحقق اقبال الليل . وما كاد يمدُّ يده ليحوِّل بعض الحجارة من طريقه حتى سمع حركة على باب المغارة فذعر وظن ان الاتراك قد علموا بمحل وجودهما وجاءوا للايقاع بهما وللحال اخذ غدارته ووقف جامداً في مكانه وقد ارهف

اذنيه فسمع الحركة نفسها ولكنه شعر ان ذلك حركة رجل يرفع الحجارة من طريقه الى المغارة بكل حذر وتأنٍ. فزالت مخاوفه بعض الشيء وخطر له ان هذا الرجل قد يكون من الفينيسيين الذين لاذوا بالفرار فجاء الى هذه المغارة لينجو بنفسه . ولبث جابر واقفاً في مكانهِ والغدارة بيده والرجل يقترب شيئاً فشيئاً الى ان بلغ باب المغارة واطلَّ من منفذ الى داخلها. فصوَّب جابر فوهة الغدارة الى رأسهِ وصاح بهِ — مكانك ايها الرجل ! قل اولاً من انت والا اخمدتُ انفاسك في الحال !

فقال الرجل — رويدك ياجابر فهذا انا بربنيانو

فسرَّ جابر في داخله وبادر فرفع ما بقي في طريقهِ من الحجارة وادخله وهو يقول — الحمد لله على نجاتك ايها السنيور

فقاطعهُ بربنيانو قائلاً بلهفة — اين القبطان وكيف حاله ؟

— اظنه نائماً فلا توقظه لانه يحتاج الى الراحة بعد ان سال من دمائهِ ما اضعفه

غير ان الدوقة كانت قد افاقت على حديث الاثنين فاستوت في فراشها ونادت بربنيانو بصوتها الرخيم وسألته عن نفسه وعن طريقة نجاته من الاعداء فقص عليها حديثهُ بالتفصيل الى ان قال — ولما علمتُ من جابر انكِ مختبئة هنا وددت ان انجو بنفسي حبّاً بالقيام بخدمتك غير اني لم اعتصم بالفرار الا بعد سقوط المدينة ونفاد كل وسائل الدفاع. وفيما كنتُ أعدو هائماً على وجهي وقد صرت بالقرب من بعض الاسوار ناداني احد رجالنا باسمي فالتفتُّ فرأيت رجلاً قد خرج من بين الانقاض

وهو يلحُّ عليّ بالاسراع نحوه فبادرت اليه ودخلت واياه سَرَباً تحجبه انقاض المنزل الذي كان فوقه فرأيت هناك ستة اشخاص آخرين من رجالنا ...

فقاطعتهُ الدوقة قائلة ـ ومن يكون هؤلاء الرجال ؟

ـ هم العم ستاك والفتى سيمون ونيقولا من نوتية الاسطول الفينيسي الذي جاء لنجدتنا في ابان الحصار والباقون من رجال الحامية

ـ وكيف تركتهم وحدهم في السرب وجئت وحدك ؟

تركتهم لأتحقق اولاً بقاءك هنا وعدم وصول اذية الاتراك اليكِ

ـ وهل السرب بعيد من هنا ؟

ـ على بعد بضع مئات من الاقدام

ـ يجب ان نستدعي هولاء الرجال الى هنا لان في ذلك فائدةً لنا ايضاً . ثم التفتت الى جابر وقالت ـ اذا كنتَ لا تزال مصمماً على الذهاب الى عبد القادر فاذهب مصحوباً بالسلامة

فقال بربنيانو متعجباً ـ وما شأن عبد القادر هنا ؟

قالت ـ ليدبر لنا وسيلة للنجاة من هذا المكان وهل تظن اننا نستطيع الخروج من هنا بدون مساعدته ؟

قال ان ذلك فوق طاقتنا لان الاعدآء منبثُّون في كل مكان وليس جزآء مَن يقبضون عليه الا القتل الشنيع

قالت ـ ليس لنا مناص اذاً الا بمساعدة عبد القادر

قال ـ وهل انتِ متحققة انه سيخلص لكِ الخدمة

قالت ـ هذا ما ارجوه من فارس باسل وشريف مثله

وكان جابر لا يزال واقفاً ينتظر اشارة سيدته فلما فرغت من كلامها دنا منها فقبل يدها وقال ـ ها انا ذاهب اليه فاذا جآء الصباح ولم أعد اكون قد وقعت في ايدي الاتراك وحينئذٍ فدعائي الوحيد قبل ان تفارق روحي جسدي هو ان تخرجي من هذا المكان وتبحثي عن السير جوسر وتعيشي واياه في بحبوحة الرغد والهنآء . ولما قال هذا قبل يدها ثانية وخرج من المغارة فأحكم سدّ بابها بالحجارة وذهب في سبيله تحت ستر الظلام الحالك

الفصل الثامن

﴿ عبد القادر ﴾

انطلق جابر على غير هدى وهو لا يعلم كيف يسأل عن عبد القادر دون ان تستريب به العيون . وما زال سائراً حتى وصل الى ساحة حصن القديس مرقس فرأى ناراً تشتعل ومن حولها بضع مئات من جنود الانكشارية وقد ارتفع هرجهم ومرجهم . وقبل ان يدنو منهم اعترضهُ خفير ألباني وسأَله عن شأنه وهو يظنه من رجالهم فقال جابر برباطة جاشٍ ـ انا رسول حسين باشا الى الضابط عبد القادر افندي بيدَ اني ضللتُ السبيل فأَرجو ان تقودني اليه

فقال الخفير ـ هيا بنا غير ان عبد القادر افندي قد يكون نائمًا في مثل هذه الساعة

قال ـ لا أعلم سوى اني موفد اليه في مهمة خصوصية من الباشا

وما لبث الاثنان ان وصلا الى منزل وقف في بابه زنجيان وبازائهما كلبان هائلان . فقال الخفير للزنجيين ـ ان هذا الرجل يريد مقابلة الافندي في مهمة خصوصية من حسين باشا صديق القائد العام ومستشاره الخصوصي

فقال احد الزنجيين لجابر ـ انتظرني قليلاً ريثما أستأذنه . ثم دخل المنزل ولم يلبث ان عاد وأومأ الى جابر فتبعهُ وهو لا يكاد يطأ الارض بقدميه تيهاً وإعجاباً بنفسه وبالحيلة التي استنبطها لادراك مراده. ولما مثل امام عبد القادر حيّاً باحترام ووقف صامتاً . فأشار عبد القادر الى الزنجي بالخروج وسأل جابر قائلاً ـ قل ماذا يريد حسين باشا بارساله اياك في مثل هذه الساعة ؟

فنظر اليه جابر نظرة الاستعطاف وقال ـ عفواً يامولاي فانما انا موفد اليك من قبل غادة حسناء لا من قبل حسين باشا كما ادعيتُ وما فعلت ذلك الاّ توصلاً للمثول بين يديك

فدهش عبد القادر وقال ـ وما شأن هذه الغادة التي انت رسولها فليس لي علاقة باحد هنا

قال ـ الاّ الغادة التي انت مَدين بحياتك لها وهي فتاة فينيسية نبيلة

ـ انك تهذي ياهذا لاني لست مَديناً بحياتي لاحد من النسآء الاّ لوالدتي

ـ وهل نسيت انك لولا شهامة هذه الفتاة لكنت منذ زمان في عداد الاموات والشاهد على صدق كلامى هو ان جرحك لم يندمل بعد

ـ ولكن الذي جرحني هو القبطان تمبستا وليس غيره

ـ نعم يا سيدي وكلامي هو انما عنه وليس عن سواه

ـ اذاً انت رسول القبطان تمبستا البطل الباسل الذي صرعني في اثناء النزال وحقن دمي

ـ لا بل انا الان رسول الدوقة اليونورا ابولي التي برزت اليك بزي الرجال وصرعتك باسم القبطان تمبستا

فذهل عبد القادر وقال ـ ماذا تقول ياهذا ومن اين للفتاة ان تقهر الاسد الدمشقي واذا كان ما تقوله صحيحاً فلم يبقَ لي الا ان اكسر حسامي واقتل نفسي

ـ لا ياسيدي وليس على عبد القادر من عار اذا غلبته اليونورا الجميلة ابنة اشهر فارس من اشراف فرسان ايطاليا

ـ وهل لك دليل على صحة ما تقول ؟

ـ ليس لي الا دليل واحد وهو ان الدوقة اليونورا ارسلت تستغيث بك لانها طريحة الفراش وفي اشد حالات الضيق والجوع . فاذا احببت ان تفي ما عليك لها بادر الى اغاثتها وانقاذها مما هي فيه

فابرقت اسرة عبد القادر وقال ـ اذا كنت مصيباً في قولك فهيا بنا اليها في هذه الساعة والا فليس لك مناص من العقاب الاليم

ـ اني اقسم بالله وبرسله على صحة ما اقول

ـ وكيف رأتك وأوفدتك اليّ ؟

ـ اني لم افارقها يا سيدي لاني عبدها منذ زمان

ـ هيا بنا اذاً اليها

ـ أرجو من شهامتك ايها المولى ان تقسم لي بشرفك انك لا تتعمد ضررها

فتبسم عبد القادر وقال ـ وهل انت مرتاب في كلامي ؟ فاعلم ياهذا ان الدم الذي يجول في عروقي هو دم شريفٍ وانا لا أبخل به في سبيل انقاذ من وهبني حياتي سواء كان ذلك رجلاً ام امرأة

ـ عفواً يا مولاي فارجو ان تصفح لي ما قلتهُ لك الان فقد كان الباعث عليه شدة خوفي على سيدتي

ـ لا خوف عليها لانها في حماي منذ الان

ثم صفق عبد القادر بيديه فجآء الزنجيان في الحال فالقى اليهما كلاماً ثم التفت الى جابر وقال ـ هيا بنا فانهما سيتبعاننا

ثم خرج الاثنان وسارا في وسط المدينة والزنجيان يتبعانهما حاملين سلالاً كبيرة مملوءَة من اشهى المأكولات والاثمار وافخر الحلويات والمشروبات . ولما خرجوا من المدينة ساروا حثيثاً وجابر يقودهم الى ان وصل بهم الى مغارة براغولا فوقف قليلاً يلتفت الى كل الجهات ثم رفع الحجارة من الطريق وولج المغارة وعبد القادر والزنجيان في اثره

وأسرع عبد القادر من ساعته فجثا امام الدوقة على ركبة واحدة كما يفعل فرسان الافرنج وقال لها ـ احييكِ ايتها الحسنآء الكريمة وأهنئكِ بنجاتك وسلامتك وأُقدم نفسي لخدمتك ولا أرى في ذلك الآ وفاء لجزء صغير مما لكِ عليَّ من الجميل

فصبغ وجه الدوقة بحمرة الخجل وقالت ـ اني ممتنة لعواطفك

الكريمة ايها الفارس الشريف ولا اكتمك اني كنتُ في شك من مجيئك

ـ وهمتِ يا سيدتي لا بل ظلمتني بمثل هذا الاعتقاد . فاعلمي الان بان عبد القادر يلبي نداء كل مَن يستغيث به ولو لم يكن له به علاقة . واما انتِ فواجب الشرف والحياة يدعوني الى سفك دمي في سبيل خدمتكِ لانكِ حقنتِ دمي بعد ان كان لكِ ملء الحق في سفكه

فأطرقت اليونورا خجلاً وقالت ـ انك مدين بذلك للقبطان تمبستا وليس لي والان ارجو ان تنسى ما مضى وتمد يدك لاغاثتي

ـ مري بما تشائين

ـ اني اسالك ان تمهد لي سبيل الخروج من فاماغوسطاوالبحث عن السير جوسر الذي أسرتموه بعد سقوط نيكوزيا ولا اعلم الى اين ارسلتموه ولما كان مجيئي من ايطاليا لاجل انقاذه فقط فارجو ان اعود اليها به

فلما سمع عبد القادر اسم جوسر شعر بانقباض في صدره وقال ـ ان السير جوسر لا يزال في بعض جهات قبرس حيث اعتقله مصطفى باشا لبعض مآرب ذاتية فغداً أعلم كل مايهمك من هذه التفاصيل وانبئك بكل شيء . والان فكم جواداً تريدين ان اجهزلكم لتخرجوا من هنا؟

فقال بربنيانو ـ عشرة جياد لان سبعة آخرين من رجالنا سينضمون الينا وهم الان مختبئون في بعض الاسراب وفي هذه الليلة نجتمع بهم

فقال عبد القادر ـ حسن فكونوا على استعداد . ثم امر عبديه فقدما سلال المأكولات امام الدوقة وقام فودعها وخرج على ان يعود في اليوم التالي



الفصل التاسع

﴿ لاشينسكي ﴾

وبعد خروج عبد القادر والعبدين استأذن بربنيانو الدوقة في الذهاب لاستدعاء السبعة رجال المختبئين في السرب ثم اخذ سلاحه والتف بعباءة جابر وخرج من المغارة وكان الوقت بعد منتصف الليل فانساب في طريق غير مسلوكة لايرى امامه الا الانقاض ولا يسمع الا نباح الكلاب . وان هو لكذلك اذ انتصب امامه شبح طويل القامة وابتدره بلهجة الازدراء قائلاً ــ ما وراءك ايها السنيور جابر وكيف حال سيدتك؟

فلما سمع بربنيانو هذا الصوت عرف ان المتكلم هو القبطان لاشينسكي صديقه القديم فوضع يده على قبضة حسامه وقال ــ اذا صدق سمعي فانت صديقي القديم القبطان لاشينسكي

ــ نعم غير ان اسمي الان يوسف وليس لاشينسكي ولعلك ايها السنيور بربنيانو قد حذوت حذوي واعتنقت الاسلام لتنجو بنفسك

ــ كلا لم افعل ما فعلته انت

ــ حسن والان فالى اين انت ذاهب في مثل هذا الليل البهيم ؟

ــ اردت ان اتجول قليلاً في ضواحي المدينة لاتزود النظرة الاخيرة منها

فضحك لاشينسكي وقال ــ وهل تظن ان مثل هذه الحيلة تروج عليَّ ! اذ كيف لي ان اصدق انك تخاطر بنفسك لمثل هذه الغاية والمدينة غاصة بالاتراك الا اذا كان في هذه المخاطرة خدمة خصوصية لشخص

عزيز .. فأنصح لك ايها السنيور ان تنظر اليَّ كالى صديق وتثق باخلاصي ومودتي

ـ شكراً لك ايها الصديق

ـ أرى انك تريد ان تثق بي فقل لي اذاً اين القبطان تمبستا ولا تخف ان اغدر بك او به

ـ القبطان تمبستا ؟ وهل هو حيٌّ الى الان ؟

فقهقه لاشينسكي وقال ـ لله درك ماأقدرك على كتمان السر ! . فاذا كان ما تقولهُ صدقاً فمن اين لك هذه العباءة وهي لجابر عبد القبطان تمبستا ؟

ـ هذه عباءتي وقد اشتريتها عند اول قدومي الى فاماغوسطا ولا انكر انها تشبه عباءة جابر كل الشبه

ـ اراك ماهراً في اساليب الايهام والتستر ولا عجب فانك قد تعلمت ذلك من القبطانة تمبستا

ـ لايليق بك ايها السنيور ان تحتقر الاموات فقد كان تمبستا بطلاً من الابطال فكيف تسميه قبطانة !

ـ لا تحاول التمويه ايها الصديق بل قل بطلة من البطلات وانا لا اشك في معرفتك اياها قبل ان قدمتما معاً من ايطاليا

ـ لا اعرف عن القبطان تمبستا سوى انه رجل شريف وبطل باسل

ـ عبثاً تحاول الانكار فاذا كنتَ لا تزال في شك من قولي فاسمع لأقص عليك ما يؤكد لك اطلاعي على حقيقة امر هذه القبطانة وان في يدي مفتاح اسرارها . فالقبطانة تمبستا او الدوقة ابولي انما جاءت الى

هنا لتفتش عن حبيبها وقد عرفته بعد التحري والاستقصاء وعرفتُ مكان اقامته الان ووددت ان يبقى هذا السر مكتوماً عن الدوقة حبّ قهرها والانتقام منها لاني أحببتها فيما مضى اما هي فأظهرت عدم مبالاتها بي لتيقنها بقاء حبيبها السير جوسر في قيد الحياة ولكنها لن تراه لانه في اشد حالات الاسر والهوان وفي معقل حصين دون الوصول اليه اهوال واي اهوال

فبهت بربنيانو وقال — اما انا فلا اعلم من كل ما سردتهُ علي الان شيئاً فكأنك تخاطبني بالاحاجي والمعميات

— قد قلت لك الحقيقة بعينها واعلم ايضاً اني لو اردت الايقاع بالدوقة لجندت لهذه الغاية فرقة باسرها من جنود الانكشارية وبحثت عنها في جميع اعماق الارض لاظفر بها حية او ميتة ولكن هيهات ان افعل ذلك لاني اريد ان اراها وحدي ليس للايقاع بها بل لاقدم لها يميني وقلبي وافرّ بها من ساحات الضرب والطعن الى بحبوحة الرخاء والرغد

— وانا ارغب لك ذلك من صميم القلب لو كان القبطان تمبستا حياً ولكنه واأسفاه قد ذهب ضحية بسالتهِ واقدامهِ

— قل ما تشاء وتظاهر بما تشاء فلا يهمني تمويهك ولا اريد ان اخاصمك بل اريد ان احفظ عهدك واكون لك صديقاً حميماً كما كنا في اوائل الحصار وسأتحقق كل شيء بنفسي . والان فهل تريد ان تعهد اليّ بخدمة اقدمها لك فيما انت ساعٍ اليه ؟

— شكراً لك ايها الصديق فليس لي ما ألتمسه منك سوى ان تأذن لي بجرية الذهاب

ـ اذهب الى حيث تشاء وكن على حذر من الاتراك واذا وقعت في ايديهم فاذكر اني ضابط في فرقة الانكشارية واسمي يوسف افندي فلعلي أستطيع مساعدتك وانقاذك من ايديهم

ثم افترق الاثنان فمضى لاشينسكي في طريقه وذهب بربنيانو في عكس الوجهة التي كان يقصدها. ولما تحقق ابتعاد لاشينسكي مال الى منعطف واختفى بين الانقاض ولبث مدة يرقب كل الجهات الى ان رأى لاشينسكي عائداً في تلك الطريق كأنه يجدُّ في اتباعه ليعرف مخبأه

ومرَّ لاشينسكي بالقرب منه دون ان يراه. ولما ابتعد مسافة كبيرة قام بربنيانو وعاود مسيره في وجهته المقصودة وما عتم ان وصل الى السرَب فدخله واجتمع بالعم ستاك ورفاقه وبعد بضع دقائق خرج الجميع من ذلك المكان وانسلوا الى مغارة براغولا وكلهم عيون شاخصة الى كل جهة

ولما دخلوا المغارة سدَّ جابر بابها سداً محكماً ودنا بربنيانو من الدوقة فقص عليها ما جرى له من الحديث مع لاشينسكي فقالت ـ ان هذا الرجل يتنسم اخبارنا لينبئ بذلك مصطفى باشا او ليوقعنا في شرك من اشراكه الخبيثة انتقاماً مني فقط فيجب ان نخرج من هنا بما امكننا من السرعة قبل ان يهتدي الينا

فقال بربنيانو ـ نعم يا سيدتي ولهذا فقد سرت امامه في غير جهة لاصرف فكره عن هذا المكان

قالت ـ حسناً فعلت فغداً يأتي عبد القادر ويطلعنا على حقيقة امر السنيور جوسر ويسهل لنا الوسائط التي يجب اتخاذها لخلاصه

الفصل العاشر

﴿الخروج من فاماغوسطا﴾

وفي مساء اليوم التالي جاء عبد القادر الى مغارة براغولا يتبعهُ اربعة زنوج بالاسلحة وقد حملوا سلالاً كبيرة مملوءة طعاماً وذخيرة والبسة. ولما مثل امام اليونورا حياها كصديق وقال لها - كل شيء معدٌّ ايتها الدوقة الشريفة لتبرحي هذا المكان وتسافري الى حيث ترومين فقد احضرت لكِ ولرجالكِ الملابس والاسلحة اللازمة واعددت الجياد المطلوبة من احسن خيول الفرقة الالبانية التي تحت امرتي

فمدت اليه الدوقة يدها وقالت بسرور - شكراً لك ايها الصديق فانا لم اشك قط بحسن سجاياك وسامي مروءتك وارجو ان تكون قد عرفت شيئاً عن السنيور جوسر

- عرفت كل ما يهمكِ الوقوف عليهِ. فالويكونت جوسر معتقَل في قلعة غوسيف التي تبعد من هنا مسافة عشر ساعات. ولما كان لي معرفة بقومندانة القلعة فارجو ان امهد لك سبيل الوصول اليها وفكاك الاسير منها وقد احببت ان اسير بنفسي في خدمتك غير ان اسباباً كثيرة تحول دون ذلك ولكني أمرت عبدي (عبد الرحمن) ان يرافقك الى هناك ويكون قيد اشارتكِ في كل شيء فهو يعرف الطريق تماماً والقومندانة تعرفه وتثق بهِ كما أثق بهِ انا

- ومن هى هذه القومندانة التي عُهدت ادارة شؤُون القلعة اليها ؟

ـ هي الاميرة كراجيا حفيدة علي باشا اميرال الاسطول العثماني ولا ريب في انها ستقابلكِ أَحسن مقابلة وتردُّ عليك الاسير لانها ترغب في مرضاتي . غير اني أخشى امراً واحداً ...

ـ وما هو ؟

ـ أخشى اذا راتكِ وانتِ في زي الرجال ان تهواكِ وتضطركِ الى الاقامة عندها طويلاً وربما أسرتكِ حبَّ التمتُّع بعشرتكِ وجمالكِ

فاحمرَّت اليونورا خجلاً وقالت ـ اما انا فاخشى ان يدبر لنا لاشينسكي او الدب البولوني مكيدة لا تخطر لنا الان ببال . ألم تره عندما كنتَ قادماً الى هنا ؟

ـ نعم رأيته وكان يترنح من شدة السكر فلم أنتبه لهُ

ـ لم يخطئ ظني في ان هذا الخبيث يراقبنا اشد مراقبة

ـ ولمَ كل هذا الاهتمام بهِ

ـ لاني أخشى ان ينصب لنا حبائله الخبيثة ان لم يكن هنا ففي الطريق او في القلعة

فاضطرب عبد القادر وقال ـ وهل يجسر هذا النذل ان يقف في طريقي او يتعرَّض لكِ بسوء اذا علم انكِ في حماي ؟ فاعلمي ايتها الدوقة اني لا اخشى مصطفى باشا نفسه حتى أهتم لمثل هذا البولوني الصعلوك فاذا جرى لكِ اقلُّ حادث في الطريق من جهة هذا الرجل فأوفدي الي عبد الرحمن في الحال ولا تخشي احداً باذن الله

فنظرت اليهِ نظرة الاعجاب وقالت ـ لا أخشى احداً وانا في حماك

ولكن لا بد من التحفظ والحذر

ـ أصبت. وسأراقب هذا الخبيث اشد مراقبة حتى اذا بدا منه ما يوجب الخوف عليك انجدتك في الحال

ثم قامت الدوقة فارتدت بلباس ضباط الالبان وفعل رجالها نظيرها فلبس بربنيانو لباس ملازم أباني وارتدى باقي الرجال بملابس الجنود وتقلدوا الاسلحة الكاملة واما جابر فبقي بعباءته وكوفيته

ولما انتهى كل شيء التفتت الدوقة الى عبد القادر وقالت وهي تتبسم ـ الان انا حميد افندي ابن امير الحجاز

فتنهد عبد القادر وقال — لله درك ما اقوى سلطتك على القلوب... فسيري الان على بركات الله واعلمي ان عبد القادر مستعدٌ ان يبقى خادمًا لك مدى الحياة ولا يرجو الا ان يراك ثانيةً فاياك ان تبرحي الجزيرة قبل مشاهدته

فارتعشت الدوقة وخفق قلبها ولكنها تمالكت نفسها وقالت ـ اما المشاهدة فلا بد منها لاني لا استطيع ان ابرح الجزيرة الى بلادي بدون مساعدتك

فتهلل وجه عبد القادر وقال ـ اشكر حسن ثقتك بي واعتمادك عليّ وغدًا سأسعى في تدبير سفينة جميلة لتقلك الى بلادك بامان . فاذا خرجت من قلعة غوسيف اقصدي بلدة سودا الواقعة على شاطىء البحر وانبئيني فأوافيك الى هناك وامهد لك سبيل السفر الى حيث تشائين

ولما فرغ عبد القادر من كلامه قام الجميع فخرجوا من المغارة

ملتحفين بحجاب الظلام . ولما وصلوا الى حيث كانت الخيول بانتظارهم امتطى كلٌّ منهم صهوة جواده وساروا وفي طليعتهم عبد القادر والدوقة. وبعد مسير ساعة من الزمن وقف عبد القادر فودَّع الدوقة وقبل يدها وهو يؤمّل لها الفوز بما ترجوه وعاد بعبيده الى المدينة وبقي عبد الرحمن في موكب الدوقة

وظلَّ حميد ورجاله يواصلون السير طول الليل. ولما لاح لهم الصباح ترجلوا للاستراحة ثم عاودوا السير الى ان بلغوا بعد ثلاث ساعات جبلاً صخرياً على شاطئ البحر قامت على قمته ابنية كبيرة ضخمة وابراج عالية

تلك هي قلعة غوسيف التي شادتها الامبراطورة كاترين كورنارو لحماية الجانب الشرقي من جزيرة قبرس من تعديات الاتراك والمصريين الذين كانت الشواطئ الشرقية من البحر المتوسط في ايديهم . ولما جاء مصطفى باشا الى قبرس حاصر هذه القلعة مدة طويلة ولم يُتح لهُ ان يفتتحها الا بمساعدة العمارة البحرية العثمانية بقيادة الاميرال علي باشا . فدخلها العثمانيون بعد ان افنوا جميع حاميتها وامر السلطان سليم الثاني بتحصينها بجميع معدّات الحرب وأقام قومندانًا عليها فتاة جميلة باسلة حازمة هي كراجيا حفيدة الاميرال علي باشا مكافأَة لهُ على الخِدَم الخطيرة التي قام بها



الفصل الحادي عشر

﴿ في القلعة ﴾

لما صارت اليونورا ورجالها على مسافة قريبة من القلعة وقفت تتأملها وتندب سوء حظ جمهورية فينيسيا التى فقدت مثل هذا الحصن المنيع ومثل هذه الجزيرة الجميلة . ثم تمثل لهـا خطيبها جوسر يعاني أليم الاسر ضمن هذه الجدران الضخمة وتصورتهُ ذليلاً نحيلا قد فقد سناءه وبهجته

وان هى لكذلك اذ دنا منها جابر وقال همساً ـ اراكِ ممعنة في الخيال ياسيدتي فيجب ان نواصل سيرنا لئلا يشاهدنا خفرآء الاسوار فيرتابوا بنا

فانتبهت الدوقة من غفلتها وقالت ـ ولكن ليس من خفرآء على الاسوار لان الاتراك كما يظهر آمنون مطمئنون لا يخشون احداً بعد ان امتلكوا جميع جهات الجزيرة

ـ اما انا فقد رأيت فرقة منهم عل احد الابراج . . .

وما كاد جابر يتم كلامه حتى اخذ الخفرآء اسلحتهم وصاحوا بالقوم قائلين ـ مكانكم ايها الفرسان ! مَن انتم وماذا تريدون ؟

فتقدم عبد الرحمن وقال ـ اننا من فاماغوسطا وقد جئنا الى هنـا بصحبة الامير حميد ابن والي الحجاز وهو يريد ان يقابل الاميرة كراجيا مقابلة خاصة

فلما سمع زعيم الخفرآء هذا الكلام نزل فِي الحال برجاله ففتحوا الابواب وتقدم الزعيم فأدّى التحية العسكرية لحميد افندي ورحب بهِ

ثم دخل به وبسائر الرجال الى القلعة حيث جلسوا في دار الضيافة وأديرت عليهم المرطبات والقهوة. وبعد ان استراحوا قليلاً قال حميد لزعيم الخفراء باللغة التركية — اين هي الاميرة كراجيا فلعلها لا تزال نائمة

فاجابه الزعيم — كلا ياسيدي فهي تنهض كل يوم قبل الجميع غير انها قد ذهبت منذ ساعتين لترى الاسرى وتتعهد صيد العلق لان الجيش في فاماغوسطا يحتاج الى شيء كثير من هذه الدويبات لاجل المرضى وهي كما يظهر لا تحب الا دماء الاسرى

فذهل حميد وقال — لم اسمع بعد بمثل ذلك

— لاتتعجب يا سيدي ففي القلعة مستنقعات كثيرة وفي كل منها عدد لا يُحصى من هذه الدويبات المفيدة للمرضى. ولما كان عندنا جمهور من الاسرى رأت اميرتنا الباسلة ان تستفيد من وجودهم اذ ليس من الصواب تركهم يأكلون ويشربون بدون فائدة فأمرت باستخدامهم في صيد العلق

فتململ حميد وقال — وكيف يجري ذلك ؟

— ينزل الاسرى الى المستنقعات فتعلق بهم هذه الدويبات لتمص من دمائهم ولا يمضي على ذلك الا بضع ساعات حتى يخرج اولئك الاسرى من الماء وقد امتلأت ابدانهم بالعلق ...

وكان حميد يسمع هذا الكلام وفؤاده يتفتت حزناً على حالة اولئك الاسرى غير انه تمالك نفسه وقال — اذن فانتم على هذه الصورة تقصرون آجال أسراكم عمداً !

— ولكننا نستفيد من ذلك

فهز حميد رأسه وقال ـ وهل يجري ذلك يومياً

ـ نعم وفي اكثر ساعات النهار

ـ وكم اسيراً عندكم ؟

ـ كانوا جمهوراً غفيراً غير ان عددهم الان عشرون فقط

ـ وهل جميعهم من نيكوزيا ؟

ـ نعم

ـ ألا تعرف بينهم اسيراً اسمه جوسر ؟

ـ كيف لا اعرفه وقد امتاز عن سائر الاسرى بالسكينة والطاعة ولم يظهر قط تذمراً من حالته

فتنهد حميد قليلاً وقال ـ اني قد حضرت الى هنا لاجل هذا الاسير فقط

فتعجب الخفير وقال ـ لعلك تريد ان تفكه ؟

ـ نعم وأُريد ان اسير به الى فاماغوسطا لان اليوزباشي عبد القادر افندي زينة ابطال الجيش العثماني قد عهد اليَّ ذلك

فظهرت الدهشة في وجه الخفير ثم قال ـ عجباً وما قصد عبد القادر افندي من ذلك

ـ لا أعلم

ـ ولكن الاميرة كراجيا لا تسمح بفكاك احد الاسرى الا بفدية مالية كبيرة قد لا يرضى بها الاسد الدمشقي

ـ لم تصب في قولك لان عبد القادر افندي ذو ثروة طائلة فهو

مستعد ان يدفع الفدية التي تطلبها الاميرة مهما كانت كبيرة

ـ انا اعلم ان اباه من اهم رجال المملكة ومن المقربين الى جلالة السلطان . ولكن ما فائدته من فكاك هذا الاسير وليس بينهما صلة دينية او جنسية ؟

ـ لا اعلم شيئاً من قصده وانما اروم مواجهة الاميرة كراجيالأعرض عليها هذا الامر وهي حرّة في تسليم الاسير او الاحتفاظ به. وفضلاً عن ذلك فان لي كلاماً اقوله لحضرتها من مصطفى باشا نفسه . فمتى تعود الاميرة الى هنا ؟

— انها لا تلبث ان تعود لتتناول طعام الغدآء ومع هذا فسأوفد اليها رسولاً يعلمها بقدومك . قال هذا وخرج لشأنهِ

ولما خلا المكان تقدم العم ستاك الى الدوقة وقال لها همساً — يجب انقاذ الويكونت بما امكن من السرعة لانّ في صيد العلق الذي انبأك بهِ الخفير عذاباً اليماً لا يُطاق وقد جرّبتهُ بنفسي وكدتُ أموت في بضعة اسابيع لكثرة ما نزف من دمي

فتنهدت اليونورا تنهداً عميقاً وسقط من عينيها دمعتان محرقتان مسحتهما للحال

وفي هذه اللحظة دخل زعيم الخفرآء وقال — قد أنفذتُ رسولاً الى الاميرة ولا أظنها الا عائدة سريعاً لتستقبل رسول عبد القادر افندي

فقال حميد — وهل هي تعرفه من قبل ؟

فتبسم الخفير وقال — انها مولعة به كل الولع

— وهل الحب متبادل بينهما ؟

— لا اظن ذلك لان عبد القادر افندي لم يقابلها منذ زمان

وظل الاثنان يتحادثان في شؤون مختلفة نحو ساعة من الزمن ورجال حميد جالسون يعون الحديث صامتين هاجسين . وفيما كان زعيم الخفراء آخذاً في الكلام سمع وقع حوافر خيل خارجاً فقال ـ ها ان الاميرة قد اقبلت فيجب ان اخرج لملاقاتها وسأذكر لها ما يجب ذكره عنك . ثم خرج وبقيت الدوقة ورجالها ينتظرون ما يكون



الفصل الثاني عشر

﴿ حفيدة علي باشا ﴾

وبعد قليل رجع الخفير وقال لحميد ـ تفضل ايها الافندي فان الاميرة تريد مقابلتك على انفراد

فنهض حميد وسار والخفير يتقدّمه الى ان وصل به الى ردهة كبيرة مملوءة بالاثاث الثمين والرياش الفاخر وفي بابها اربعة زنوج مدججين بالاسلحة الكاملة . وكانت الاميرة كراجيا جالسة في صدر الردهة على مقعد من الدمقس وقد ارتدت بسروال من الحرير الابيض الموشى بالذهب وتقلدت في منطقتها خنجراً طويلاً مرصعاً بالاحجار الكريمة الغالية الثمن . وكانت هذه الاميرة هيفاء القوام رائعة الحسن ذات ابهة وشأن

فلما دخل حميد الى الردهة رنت كراجيا اليه بنظرها الفتان ثم نهضت فاستقبلته ببشاشة ودعتهُ الي الجلوس بازائها ففعل وهو غير متهيب لشيء
ولما خلا بهما المكان أقبلت كراجيا عليه تسأله عن اسمه ونسبه وحاجته . فأجابها عما سألت ثم قال ـ اني رسول عبد القادر افندي اليك ايتها الاميرة وهو يسألكِ ان تسمحي له باحد الاسرى المعتقلين في القلعة
فدهشت كراجيا وقالت — واي اسير يطلب عبد القادر واي علاقة بينهما ؟

— انهُ يطلب الويكونت جوسر ولم أعلم قصده بذلك فلعله يريد ان يرسله بمهمة الي فينيسيا

— بامر من يريد ان يفعل ذلك ؟

— بامر مصطفى باشا

— ألا يعلم مصطفى باشا ان جميع الاسرى في هذه القلعة هم لجدي وليس له او لغيره حق المداخلة في شوءونهم ؟

— اذن فأنتِ ترفضين هذا الطلب

— سأجيبك على ذلك بعد مناولة الطعام اما الان فقل لي ما تعرفه عن احوال عبد القادر

— انه في احسن حال الان بعد ان تعافى من الجرح الذي اصابه في ساحة النزال

فبهتت الاميرة وقالت — وهل جرح عبد القادر ومن الذي جرحه

— جرحه القبطان تمبستا احد فتيان البنادقة وكانا قد تبارزا قبل

سقوط فاماغوسطا فجرحه تمبستا جرحاً بالغاً

– يا للعجب فقد يكون هذا الفتى اله الحرب نفسه لان عبد القادر لا يُغلب

– هو ما قلته لك ياسيدتي

وكانت كراجيا تسمع حديث حميد وهي محدقة الى وجهه وقد ادهشها جماله الباهر وسحرها لطف حديثه ورقيق اسلوبه ورأت فيه جاذباً علق فوءادها بحبه فشعرت باشد الميل اليه والشغف به . ولما فرغ من حديثه قالت له – يلوح لي ان الفتى الذي قهر عبد القادر يشبهك بالصورة والجمال

فتبسم حميد وامسك عن الجواب

فقالت – وهل انت ايضاً من فرسان النزال ايها الافندي ؟

– نعم فقد تعلمت جميع فنون الفروسية في بعض البلدان الاوروبية مثل اسبانيا وفرنسا وايطاليا الى حيث ارسلني والدي لهذه الغاية فقط

– قد اصاب والدك في ذلك لان الجمال والفروسية اذا اجتمعا في شخص واحد كان منتهى الكمال

فاحمرَّ حميد خجلاً ولم يجب . وكانت كراجيا لا تكاد ترفع نظرها عنه وهي تزداد افتتاناً به ثم قالت له – اني مسرورة جداً بمشاهدتك واودُّ ان تمكث عندي بضعة ايام

قال – ولكني مضطر الى تعجيل العودة الى فاماغوسطا لان عبد القادر بانتظاري

– لا لا اني لا ادعك تبرح هذا المكان في مثل هذه السرعة

– وجوسر ؟ أفتعدينني باطلاق سراحه ؟

– اذا كنتَ انت تريد ذلك فلا بأس من الافراج عنهُ اكرامًا لك

– وهل يمكنني ان اشاهده في هذا النهار؟

– غداً تشاهده لانه في مكان بعيد وسأبعث رسولاً بطلبه . اما الان فهيا بنا الى غرفة الطعام

ثم ذهبا معًا وهي تقص عليه احاديث مختلفة واخبارًا عجيبة وتود ان يظل الى جانبها مدى الحياة

ولما كان المساء خلت الاميرة كراجيا بحميد وقد اجلسته الى جانبها واخذت تقص عليه ما جرى لها من الوقائع الحربية وكيف انها تعرفت بعبد القادر واحبته الى ان قالت : اما هو فقد غدر بالحب وازدراني ولم يعد الى ذكري فأضمرتُ له الشر والبغض وصرت اودُّ ان انتقم منه لنفسي

فدهش حميد لهذا الحديث ولبث صامتًا يسمع ويتعجب . فقالت الاميرة – ولا اكتم عنك اني قد احببتك من اول نظرة واريد ان تشاطرني نعيم الحياة لاظلّ متمتعة بجمالك الفتان غير اني اريد اولاً ان انتقم من عبد القادر وتكون انتَ آلة هذا الانتقام

– وكيف ذلك ؟

ان تبارزه وتقتلهُ ثم تعود اليَّ لأضمك الى صدري واكون سعيدة بقربك

— واذا لم أتمكن من مبارزته وقتله ؟

— لا اظنك تعجز عما لم يعجز عنه غيرك لان البسالة ظاهرة بكل سنائِهـا في وجهك الجميل واذا لم تستطع ان تقتلهُ في المبارزة اقتله باي واسطة شئت

— وكيف لي ان أفعل ذلك وعبد القادر صديقي الحميم ؟

— اذا لم تعدني بذلك فلن ترى الويكونت جوسر وحينئذٍ تضطرُ الى العودة بصفقة المغبون

فأطرق حميد قليلاً ثم قال — حسن فحميد يعدك بذلك ويقسم لكِ بشرفهِ انه سينتقم من عبد القادر ويعود اليك في الحال

فأبرقت اسرة كراجيا سروراً وقامت اليه فعانقته وقالت — قد وثقت بكلامك ولا اشك في انك لا تخيب املي



الفصل الثالث عشر

﴿ جوسر ﴾

وفي اليوم التالي جيء بجوسر من المستنقعات وكان قد انتهك جسمه واشتدَّ عليهِ الضعف والهزال وصار اشبه بالاموات منه بالاحياء فأَمرت كراجيا بان يُعطى لباساً حسناً ويُعتنى به اعتناءً خاصاً. وقد رآه رجال الدوقة وأُذن لهم بمخالطته . وكان جابر قد رأى وجوب الانفراد بهِ واطلاعه على حقيقة الامر قبل ان تشاهده الدوقة لئلا يبدو منه اذا عرفها ما يكشف

الستار عن حقيقة حالهما . ولذلك فلما خلا المكان تقدم اليهِ واخبره بالواقع وطلب منه ان يتجلّد لدى مقابلته الدوقة ما امكن . وكان جوسر عندما رأى جابر قد عرفهُ وسُرّ في داخله سروراً عظيماً وأُعجب بمروءة محبوبته ومخاطرتها بحياتها في سبيل انقاذه

وفي هذا الوقت كانت كراجيا جالسة في غرفتها الى حميد يتآنسان ويتغازلان وقد ادّى بهما الحديث الى ان قالت كراجيا ـ كنت اودُّ ان تبقى بجانبي ولا تغادرني في مثل هذه السرعة

فاجابها حميد ـ غير ان عليّ واجباً آخر لا بد من قضائه ليصفو لنا الجو ونعيش بغبطة دائمة . وهذا الواجب هو ان اقوم بوعدي لعبد القادر ومصطفى باشا بسرعة العودة اليهما بالاسير

— وهل نسيتَ الواجب الذي عليك لي ؟

فارتعش حميد وقال — هيهات ان انساه ايتها المفدّاة فسأبرُّ بوعدي ولا ألبث ان اعود اليك على اجنحة الشوق والهيام

— وهل تبقى محافظاً على حبي قبل ان اراك ثانية ؟

— وهل عندك شك في ذلك

— لا لا اني لا اشك في صدق قولك ولكني اتوسل اليك ان ترجع الى هنا سريعاً لان قلبي قد اضطرم بحبك وساقضي هذه الايام بانتظارك وانا على احرّ من الجمر فلا تعذبني بطول الهجر وكن أرأف بي من سواك

— بالله لا تعذبيني يا كراجيا بمثل هذا الكلام بل شجعيني على احتمال ألم النوى واسرعي في تدبير امر خروجي من هنا لاستطيع ان اعود

اليكِ سريعًا

فتنهدت كراجيا وقالت — كل شيء معدٌّ ايها الحبيب وقد وصل الاسير ايضًا غير ان خروجك من القلعة لا يكون قبل صباح الغد

— وماذا يمنعنا من السفر الان ؟

— قلبي والاسير فكلاهما عليلان

فتنهد حميد وقال ــ اذا كان لا بدَّ من الانتظار فامركِ مُطاع

وقضى حميد بازآء كراجيا طول ذلك النهار وهما يتطارحان احاديث الحب وقد افتتنت كراجيا به وكادت تندم على وعدها لهُ بالسفر

ولما انبثق فجر اليوم التالي خرج حميد برجاله وبينهم الويكونت جوسر من قلعة غوسيف وقد خرجت الاميرة كراجيا ببعض رجالها فشيعتهم نحو ساعة من الزمن ثم عادت الى القلعة وهي عرضة للافكار والهواجس

وسار حميد ورجاله في طريق فاماغوسطا وكان عبد الرحمن خادم عبد القادر يسير في مقدمتهم . ولما تواروا عن الابصار وقفت الدوقة وجوسر فترجلا عن جواديهما ثم وقع الاثنان احدهما على عنق الاخر وهما يهنئان بعضهما بعضًا باللقآء. ولما كُفكفت الدموع عاد كلٌّ منهما الى جواده وسارا جنبًا الى جنب وهما يتجاذبان اطراف الحديث والسرور طافح على وجهيهما . وكانت اليونورا قد استاءت جدًا لِما رأت من نحول حبيبها وهزالِهِ ولكنها شكرت الله على نجاته وهي ترجو ان تعود اليه عافيته في مدة قصيرة

وبعد مسير بضع ساعات امرت الدوفة عبد الرحمن ان يسير سريعاً الى فاماغوسطا وينبىء عبد القادر بما تمَّ لهم من الفوز ويسأله ان يوافيهم الى بلدة سودا . فسار عبد الرحمن ينهب الارض وبقيت الجماعة سائرة في طريق فاماغوسطا وفي نيتها العدول عنها بعد قليل وانتهاج طريق اخرى تؤدي الى سودا



الفصل الرابع عشر

﴿ خيبة الامل ﴾

ما كادت الاميرة كراجيا تصل الى قصرها في القلعة وهي منقبضة الصدر لفراق حبيبها حميد حتى مثل امامها احد حجابها وقال — الان وصل من فاماغوسطا احد ضباط الانكشارية وقد جاء عن طريق المستنقعات وهو يريد مواجهتك بالحاح

فقالت الاميرة وهي تتعجب — عليَّ به

ولم يكن الا القليل حتى وقف امامها رجل بلباس الضباط فحياها وقال — اسمحي لي يا سيدتي ان اسألك اولاً عن النصارى الذين جاءوا الى هنا متنكرين بقصد انقاذ اسيرك الويكونت جوسر من القلعة

فاجفلت كراجيا لدى سماعها هذا الكلام وقالت — ماذا تقول ايها الرجل . . ومن انت ؟

قال — كان اسمي قبلاً القبطان لاشيفسكي غير اني لم ألبث ان

انخرطتُ في سلك الجيش العثماني المظفر واصبح اسمي يوسف وانا الان ضابط في فرقة الانكشارية وقد علمتُ امس بان بعض البنادقة الذين لاذوا بالفرار بعد سقوط فاماغوسطا قد جاءوا الى هنا متنكرين وفي نيتهم تخليص الويكونت جوسر والفرار به. فركبت جوادي وسرتُ طول الليل وانا اودّ ان اصل الى هنا قبل ان تنطلي عليك حيلة هؤلاء الرجال وقد دخلتُ القلعة من جهة المستنقعات لاني ضللتُ الطريق فعسى ان اكون قد وصلتُ في حين الحاجة اليّ

فذعرت كراجيا وجحظت عيناها وقالت وهى تتلظى غضباً — انهم قد خدعوني ... وهذا حميد ! ..

— حميد ! آه ياسيدتي وكيف امكنك ان تصدقي مثل ذلك ! ولكن لا عجب فان هذه الفتاة من ادهى خلق الله حيلةً ومكراً

فازدادت الاميرة ذهولا وقالت — لم افهم شيئاً مما تقول. وما علاقة هذه الفتاة بحميد وهو انما قد جاءني ببضعة رجال ليس بينهم فتاة

فلم يتمالك لاشينسكي من الضحك ثم قال — ان الذي جاءك ايتها الاميرة باسم حميد انما هى فتاة فينيسية كانت متنكرة في فاماغوسطا باسم القبطان تمبستا فلما سقطت المدينة جاءتك بزي آخر

— اذن هى التي بارزت عبد القادر باسم القبطان تمبستا وغلبته!

— هى بعينها

— وكيف ادّعت بانها رسول عبد القادر اليّ لاجل فكاك الاسير جوسر وما غايتها من ذلك ؟

— ان جوسر هو خطيب هذه الفتاة وهى انما لاجله قد خاضت غمار الحروب . واما عبد القادر فلما اطلع على حقيقة امرها شغف بها الى درجة العبادة بيد انه رأى ان يمهد لها سبيل اطلاق سراح حبيبها وفاء لما لها عليه من المنة والجميل

— اذن فهو يحبها ايضاً

— لا شك في ذلك والا لما أبقى عليها وعلى بعض رجالها خلافاً لارادة مصطفى باشا الآمر بقتل جميع البنادقة . لا بل ترينه مستعداً ان يقاوم لاجلها لا مصطفى باشا فقط بل السلطان ايضاً

فأطرقت كراجيا قليلاً وقد امتقع لونها وشعرت بنار آكلة في صدرها ثم رفعت رأسها وقالت — ان هذه الفتاة قد سخرت بي وخدعتني ما شاءت فيجب ان انتقم لنفسي منها شرّ انتقام

ولما قالت هذا امرت باستدعاء قائد القلعة في الحال . ولم يمضِ الا القليل حتى دخل رجل غليظ الجسم شرس الهيئة يقال له متيوب . فقصت عليهِ كراجيا باختصار حديث حميد ورجاله ثم قالت — خذ عشرين جندياً واسرع في اثر هؤلاء القوم ولا تعد اليّ الاّ وفي قبضتك زعيمتهم المتنكرة واياك ان تمسها بأذى لتذوق من يدي ما تستحقهُ من انواع النكال

فقال لاشينسكى وهو يكتم فرحه — اسمحي لي ايضاً ان أسير بمعية متيوب افندي لاجل هذه الغاية . فأذنت له بذلك

وبعد قليل كان عشرون جندياً من حامية القلعة قد اجتمعوا بخيولهم

واسلحتهم فسار متيوب ولاشينسكي في مقدمتهم وهما يقسمان ان لا يعودا الى القلعة الاّ والدوقة الحسناء في قبضتهما



الفصل الخامس عشر

﴿ المعركة ﴾

بينا كانت الدوقة ورجالها سائرين في طريقهم وقد بعدوا عن قلعة غوسيف مسافة اربع ساعات طرق سمعهم وقع حوافر خيل وراءهم فانتبهت الدوقة واذا بكوكبة من الفرسان تجدُّ في اثرهم فلم يبقَ عندها شك في ان الاميرة كراجيا قد اكتشفت سريرتها او ندمت على اطلاق سراح جوسر فارسلت هؤلاء الفرسان ليسدُّوا عليها منافذ النجاة. وفيما كانت الدوقة تفحص بنظرها هؤلاء الفرسان ابصرت لاشينسكي بينهم فبرقت الحقيقة امام عينيها في لحظة واحدة وطار عقلها وأيقنت بحبوط المسعى والوقوع في الفخ . غير انها انتفضت فجأة فانتضت حسامها وصاحت برجالها ان لا يبيعوا ارواحهم رخيصة . فتهيأوا جميعهم للقتال

وكانت الدوقة قد ظهرت على وجهها جميع علائم البسالة فاتقدت عيناها وارادت ان تقف لمصادمة مطارديها . فدنا منها العم ستاك وقال — انهم يفوقوننا ياسيدتي كثيراً فأرى ان نستطرد امامهم في طريق سودا وعما قليل نصل الى قرية مقفرة نستطيع ان نتخذ بعض انقاضها حصوناً تقينا نار الاعداء بعض الشيء وتساعدنا على غلبتهم

فأستصوبت الدوقة هذا الكلام واستطردت برجالها امام فرسان متيوب ولم يلبثوا ان دخلوا القرية التي ذكرها ستاك وهى عبارة عن بيوت متهدمة ليس فيها احد فانقسموا الى فرقتين وقفت كل فرقة وراء بعض الانقاض واستعدوا للقتال

وكان متيوب قد وصل برجاله وهو يحرضهم على الفتك بالبنادقة ويحذرهم الايقاع بالدوقة لان الاميرة كراجيا تريد ان تنتقم منها بيدها. فأخذ رجاله بنادقهم في ايديهم وجعلوا يطلقون النار على البنادقة ويدنون منهم شيئاً فشيئاً وكان هوءلاء يجاوبونهم بالمثل وقد قتلوا منهم بضعة رجال دون ان يُصابوا هم بأذى لاستتارهم وراء الانقاض . وكان متيوب يتلظى غضباً وهو يريد ان يهجم على البنادقة ويفنيهم عن آخرهم

وما زال اطلاق النار متواصلاً حتى كادت تفرغ ذخيرة البنادقة. فتخوفت الدوقة العاقبة وامرت رجالها بالخروج من وراء الانقاض ومقابلة الاعداء بالسيوف والحراب . وما هى الا لحظة حتى هجم الفريقان بعضهما على بعض ونابت طعنات الايدي وقوة السواعد عن رصاص البنادق ونار البارود وقد خسرت الدوقة اربعة من رجالها وفقد متيوب نحو نصف رجاله

وفيما كان الفريقان في عراك واشتباك انحاز لاشينسكي الى ناحية ثم صوب بندقيته الى صدر الويكونت جوسر واطلق عليه النار فسقط المسكين الى الارض صريعاً . فلما رأت الدوقة ذلك صاحت بصوت اليم وقلب يقطعهُ الحزن وما عتمت ان هجمت على لاشينسكى كاللبوءة

الفاقدة اشبالها ولم تمهله ريثما استوى امامها حتى طعنته في صدره بحسامها وهي تقول ــ مت ايها الخائن بثار جوسر فقد انتصف الله منك . فسقط لاشينسكي الى الارض مضرّجاً بدمائه وارتدت الدوقة عنه الى حيث كان رجال متيوب قد احدقوا برجالها من كل ناحية واشتدّ بينهم الطعن والضرب فهجمت الدوقة على الاعداء بقلب لا يخاف الموت وقد قدحت عيناها شراراً وودت ان تموت او تأخذ بثار حبيبها من الجميع

وفيما كان الفريقان مشتبكين وكان اكثر من نصف رجال كل فريق مطرَّحين على الثرى ظهر عن بعد نحو عشرة فرسان وقد امتشقوا سيوفهم وأَقبلوا الى ساحة المعركة مسرعين . ولم تكن الا بضع دقائق حتى وصلوا وفي طليعتهم عبد القادر والعرق يتصبب من جبينه كمن قربة والى جانبه خادمه عبد الرحمن يسابق الرياح

ولم يكن قد بقي في قيد الاحياء من رجال الدوقة الا بربنيانو وجابر وستاك فلما رأوا عبد القادر اشتدت عزائمهم وتجدد املهم في النجاة وقد ارتفع منهم هتاف الاستبشار والفرح . واما رجال متيوب فلما تحققوا انحياز هذه النجدة الى جانب اعدائهم تضعضعت عزائمهم واستولى عليهم الذعر والفشل ولم يلبثوا ان فقدوا قائدهم وولوا الادبار فلحقهم عبد القادر ورجاله مسافة قصيرة ثم عادوا الى حيث كانت الدوقة بازاء جثة حبيبها وقد أكبت عليه تقبله ومن حولها اصحابها صامتون واجمون وقد اثر هذا الحادث في نفوسهم تأثيراً شديداً

فتقدم اليها عبد القادر وهو يجتهد في تعزيتها وتسليتها ثم قال ــ

يسوءُني ياسيدتي انني لم اصل اليك قبل نشوب المعركة ولو علمتُ بما نوت الاميرة كراجيا ان تفعله لسرتُ في خدمتك بنفسي ولكن ماجرى فقد جرى بقضاء الله وقدره فيجب الان ان ندفن القتلى ونتابع المسير الى بلدة سودا حيث تنتظركِ سفينةٌ يونانية استأجرتها لتقلّك الى بلادكِ بأمان.

فتنهدت الدوقة وقالت — نعم قد قُضي الامر وليس على الاميرة كراجيا من ذنب غير ان الذي وشى بنا اليها وأوغر صدرها علينا وكان علة كل هذا الشقاء وهذه الفظائع انما هو لاشينسكي اللئيم وهو الذي قتل جوسر ايضًا

فقال عبد القادر متأثرًا — لم يخطر في بالي ان يتصل اللؤم بهذا الوغد الى هذه الدرجة فاين هو الان ؟

قالت — قد انتقمتُ منه انتقامًا عادلاً وها هو بين القتلى جثة هامدة



الفصل السادس عشر

السفر الى ايطاليا

وكان بعد ذلك ان رجال عبد القادر قد اودعوا الثرى جثث القتلى وسار الجميع الى بلدة سودا فوصلوها ليلاً وباتوا الى الصباح

وفي اليوم التالي بينا كان عبد القادر جالسًا الى الدوقة يتجاذبان اطراف الحديث وقد سردت له ما لا يزال يجهله من قصتها ساقها الحديث

الى ان قالت الدوقة — لم يبقَ الاّ ساعات قلائل من وجودنا معاً فسأرحل اليوم الى بلادي وقد نسيت كل ما مضى الا ما لك عليّ من المنة والجميل

فتنهد عبد القادر وقال ـ وهمتِ ياسيدتي اذ ليس في جميع اعمالي في سبيل خدمتك ما يفيك حق احسانك اليّ الا اذا جعلت حياتي كلها وقفاً على خدمتك . فهل يكون لهذا القلب حظ عندكِ ؟

فادركت اليونورا ما جال في خاطره وكانت قد قرأت ذلك في عينيه قبل خروجها من فاماغوسطا فارتعشت وقالت — ليس لي سلوة ولا عزاء الا بك بعد كل ما جرى

فدنا منها عبد القادر ورسم على يدها قبلة حارة وقال — لقد اخذتِ بمجامع قلبي منذ نظرتك اول نظرة في مغارة براغولا غير اني كتمت حبي في صدري الى ان شاءت العناية باظهاره . فاعلمي الان ايتها المفداة بان حبك قد ملك قلبي واستعبد جوارحي وليس لي من سعادة الا ان ارافقكِ ليس الى ايطاليا الجميلة فقط بل الى آخر الحياة

فتنهدت اليونورا وقالت — نعم هكذا شاءت العناية فانا لك الى ما شاء الله

ولما اقبل المساء امر عبد القادر فرسانه بالرجوع الى فاماغوسطا ثم ركب مع الدوقة السفينة ومعهما جابر وعبد الرحمن وبربنيانو والعم ستاك فاقلعت بهم من مياه قبرس ووجهتها ايطاليا . وكانت اليونورا قد وقفت على جانب السفينة والقت نظراً مودعاً الى جهة الجزيرة وهي

تتنهد من قلب اسيف . وما توارت الجزيرة عن بصرها حتى دفنت كل تلك التذكارات المؤلمة واخذت تنظر الى مستقبل حياتها وهي بازاء حبيبها عبد القادر الذي اظهر من المروءة والشهامة في سبيل خدمتها وما يندر نظيره

ولما وصلا ايطاليا تمَّ بينهما عقد القران وراق لهما الزمان فعاشا اهنأ عيشة الى ان ادركهما هادم اللذات ومفرق الجماعات



تمت

كلمة للمعرّب

لما كانت هذه الرواية موضوعة في كتاب كبير يشتمل على ٢٦٣ صفحة لم نرَ بدًّا في اثناء تعريبها من مخالفة الاصل والايجاز الكثير في اماكن كثيرة منها لكي لا يملّ القارىء ولا تزيد الرواية عن الفراغ المعيَّن لها في المجلة والحمد لله اولاً وآخراً



